# القسم الثانى

## دولة العلم بالجامع الأحمدى

إذا كنا قد أنشأنا للكتاب دولة هى صبيانه ومعلموه ، أفلا يكون للعلم دولة ، رعيتها الطلبة أو المجاورون ، وعمالها المشيوخاء أو العلماء ، ورأسها شيخ الجامع ؟ ! أما إقليمها فالجامع وملحقاته ، وجنودها الجندى أو المشد على رأس الملاحظين والخدم جميعاً . ويتبع هذه الدولة ، عدا هؤلاء ، عمال إداريون من كتبة وأنصاف كتبة . وليس يهمنا من رجال هذه الدولة إلا من له صلة بالتعليم ؛ أما النظام والإدارة فليسا من موضوعنا مباشرة .

ونريد بملحقات الجامع بعض الزوايا والمساجد الصغيرة القريبة من الجامع ، والتى كانت تتخذ مكانا إضافياً للدراسة لبعض العلماء غير المرخصين أو المتعالمين ، مثل جامع البهى ، وزاوية القصبى وغيرهما مما سيأتى ذكره عرضاً أو قصدا .

ومسجد البهى هذا ، قلما كانت تنقطع منه الدروس طول النهار ، وهو مسجد كبير ذكر المرحوم على مبارك باشا فى خططه أنه يسمى « مسجد البوصة » وهو جامع عتيق ، يقال إنه من زمن الصحابة . وله منارة وبابان ، ويقيم به جملة من طلاب العلم ، وفيه درس دائم ، وفيه ضريح الشيخ « محمد البهى » .

# المجاورون

هم طلبة العلم بالجامع ، كالذين كانوا يجاورون « بيت الله » بمكة . وتتفاوت أسنانهم بين العاشرة والأربعين أو الخمسين ، إذ كان الطالب يفِد على الجامع مختاراً بلا قيد ولا شرط ، فيختلف إلى من يشاء من العلماء ، ويتلقى عنهم من الكتب ما يريد ، ويبقى فيه ما شاء الله أن يبقى ؛ فإن ساعدته معيشته على الاستمرار فى طلب العلم سار فى طريقه ، حتى ينال شهادة العالمية أو يقضى نحبه ، وإلا انقطع عنه فعاش فى بلده أو قريته ، بعد إلمامه بشىء يسير من العلم ، وخبرة بالحياة ، اكتسبها من الغربة عن بلده وأهله .

والمجاورون فى طنطا — كانوا — يمتازون إذا ساروا فى الطريق بمحافظهم التى يتأبطونها ذهاباً وجيئة ، ومناديلهم التى فى أيديهم عند ذهابهم إلى الجامع صباحاً ، وقد عقدت على رغيفين أو ثلاثة من رقيق الخبز ، وقبضة من القُرص وقطعة من الجبن أو المخلل . أما أحذيتهم فهى النعال المعروفه « بالمركوب » الأحمر وعمائمهم تعلو رءوسهم وتكبرها ، وهى ملفوفة على غير نظام . ولهم مسحة خاصة ، أو سحنة يعرفها « ابن البلد » ، فيتبعهم صغار الأولاد وشبانهم أحياناً بنداءات تهكمية ، أهمها وأشهرها :

يامجاور ! عمتك دابت ! م الطرشى والفول النابت ! م السلطة والفول النابت !

ومع أنهم غرباء يستحقون الرعاية ، وطلبة علم يُمنحون الاحترام ، كانوا مثار دعابة واستخفاف من أهل طنطا ! إذا مروا بهم رموهم ببذىء الكلام ، وقد ينادونهم من الخلف بندائهم المعروف فى الجامع « س س س » ، فإذا التفت أحدهم بحكم العادة لم يسمع جواباً إلا صوتاً يشبه « الريح » الخارج من « أحد السبيلين » . وعندما مر أحدهم بقميصية ( قيسارية ) الحلوانية فى الغسق ، وجد عمامته قد ارتفعت عن رأسه ، وصارت معلقة فى الهواء بين السماء والإرض ، فلا تجذبها الأرض ولا ترفعها السماء ، وذلك لأن خبيثاً فى النافذة قد اختطفها بسلكة حديدية لا ترى ، فتجتمع المارة تطلب من إله السماء أن ينزلها إلى الأرض وإذا بها تسقط فيتلقفها صاحبها ويجرى بها فرحاً مسروراً . ولست أنسى ذلك الطفل المدلل من أولاد الأغنياء بطنطا وهو « ع . المنشاوى » يقود كلباً ذئبياً طويل الجسم مرتفع القامة ، ثم يطلقه على المجاورين المارين فى الطريق ، حتى اضطر أحدنا إلى الالتجاء لترعة الجعفرية ، فخاضها بملابسه حتى وصل الماء إلى سرته ! أما ما كانوا يلقونه من قارص الشتائم عند شراء لوازمهم اليوميه ، وما يعترضهم من إهانات شتى فى

طريقهم ، فقد كانوا يقابلونها أحياناً بالإعراض ، وتارة بلعنة أبى من يتعدى عليهم . وقد كان المجاورون يقابلون تلك الإهانة بالصفح الجميل ، راضين بها متحملين ما يلاقون ، عالمين بأن الثواب على قدر المشقة ، وأن ذلك هين فى سبيل طلب العلم .

والمجتهدون منهم يقضون نهارهم فى الجامع ، فيفطرون فيه على لمجة ( تصبيرة ) ويتناولون غداءهم فى الضحى . يتنقلون بين الدروس المختلفة ، كما تختلف النحلة إلى الأزهار تمتص رحيقها ؛ فإذا أقبل الليل أووا إلى مضاجعهم فى منازلهم ، بعد تناول العشاء هناك إن لم يكونوا تعشوا فى الجامع .

ولكل طالب مستجد عند دخوله الجامع أن يقدم «انتسابة» إلى شيخ مديريته ، وبعد اختباره فى القرآن الكريم على يد نقيب الشيخ ، يقيد اسمه فى سجلات المشيخة ، ثم هو حر بعد ذلك فى اختيار الشيخ والكتاب والدرس ، مع المواظبة أو عدمها . والمشيخة لا تسأل عن الطلاب إلا عند « حصرهم » أو « فرزهم » أو « عدّهم » بالنداء عليهم قبيل آخر العام أو قبيل مسامحة الصيف مرة فى السنة ، وقلما تتكرر فى العام الدراسى .

اليوم عطلت الدراسة فى الجامع ، وذهب الطلاب جميعاً إلى جامع «البهى» والتفوا حول دكة عالية ، يستمعون إلى الشيخ «صالح» رحمه الله ، وهو ينادى أسماء الطلبة بصوته الجهورى العالى ، مبتدئا

من السنوات القديمة ، وكلما فرغ من سنة انتقل إلى أخرى . إنه صادف شخصاً أجاب عن نداء اسم من الأسماء فشك فى شخصيته ، وأخذ يسأله : من أى بلد ، وعلى من تحضر ، ومن معك من أولاد بلدك ؟ إلى غير ذلك من الأسئلة ، فإذا اقتنع بأنه صاحب الإسم تركه ، وإلا «شطب» اسمه من السجل أو حذفه ، فلا يقبض أو يصرف صاحبه حقه فى صندوق النذور ، ولا يأخذ جرايته ولا يعود طالباً بالجامع ثانية ، إلا إذا جدد انتسابه فى أوائل العام المقبل .

والمجاورون على ثلاث درجات تبتدىء بالثالثة وتنتهى بالأولى وبينهما الثانية . وليس لطلاب الدرجه الثالثة أى امتياز ، عدا أنهم يستحقون فى « الصندوق » صندوق النذور بعد المواظبة على الحضور سنتين متواليتين . أما الدرجة الثانية فيمنح طلابها خبزاً جارياً أو «جراية » أقله رغيفان فى اليوم ، ويضاعف نصيبهم من الصندوق . ويأخذ طلاب الدرجة الأولى من الصندوق ثلاثة أنصبة ، ويستحقون فى « جرايات » أرقى ، ويسكنون « خلوة » من المساكن التى بالجامع .

ولطلاب العلم جميعاً ميزات أخرى فى القوانين ، فيعفون من « خفر النيل » أيام الفيضان ، ومن الخدمة العسكرية ، بعد امتحان فى الحالة الثانيـة . وللمجاورين فى اجتماعهم بالجامع

مواقف خصام ومشاجرة ، يستدعيها التزاحم على أمكنة الدروس والمناقشه فى القوة والشجاعة . وكما أن « الصعايدة » فى الأزهر كانت لهم المنزلة الأولى فى ذلك ، كذلك كان « البحاروة » أو طلبة مديريةالبحيرة فى الجامع . وكانت لهم سمات جسمية تدل على الفتوة ، وملابس خاصة تميزهم ، أهمها « اللبدة » الرومية البيضاء المطوية على شكل القبعة . كانوا أقوياء الأجسام ، شرسى الطباع ، إذا أعلنوا العداء على جماعة فالويل لهم ، لما عرف من سطوتهم ؛ وهم شباب فى الغالب لأنهم لايستمرون فى طلب العلم كثيراً ، وكل من فى الجامع يحسب حسابهم ، إلا «أولاد مليج» الذين كانوا خلفنا تحت طرف الدكةالقبلى . إذ كانوا كثرة مجتمعة يخشى بأسها ، فهم ينتصفون المائة ، وفيهم عدد من الشباب لا يهاب خوض معارك الطلبة ! ولست أنسى يوماً وقف فيه الطالب محمد أبو جلاله (رحمه الله) وبيده « نبّوت » أو عصا طويلة من خشب الشوم طولها خمسة أذرع ، وهو يدور بها فى دائرة كان مركزها ، فلم يقف أحد فى طريقه ، وانفض المقاتلون من حوله ؛ وكان شابا مفتول العضل ،لم تسمح من جسمه آثار الريف والفلاحة ، ولم تنعمه أو تخضد شوكته آثار العلم والدرس ، فكان يشبه فى ذلك كله « البحاروة » .

هذا ، ومن انقطع من المجاورين عن طلب العلم وذهب

إلى قريته ، كان معروفاً فيها فيستفتى فى مسائل علمية ، فى الطهارة والنجاسة . والنكاح والطلاق . ويكون فى الغالب مرجع العامة فى القرية . وإن كان من الجاهلين .

وقد يدعو الغرور كثيرا منهم إلى إساءة سيره وسوء سيرته، مما دعا بعضهم لأن يقول « شيطان رجيم ولا ( خير من ) مجاور قديم » ، وقد يعارض المثل الفرنسى Cherchez la femme ذلك المثل « ابحث عن المجاور فى القرية » .

كان المجاورون القاعدون فى القرى ، وهم أكثر علما وأوسع حيلة من فقيه الكتاب ، يتزعمون شئون القرية خيرها وشرها . فمنهم من يفرق بين المرء وزوجه ، ومنهم من يتولى إدارة أموال بعض الأغنياء ، أو يسيطر على عمدته فيوجهه حيث يريد . ومنهم من يملك زمام البلد ، فلا تجهز عروس إلا عن يده ، ولا يكتب عقد بيع أو شراء إلا بحضوره ، وكثير من أمثال هؤلاء كان حظهم فى تحصيل العلم ضئيلا ، لأنهم كانوا يقضون أوقاتهم وهم مجاورون فى استقبال الزائرين والفلاحين ، وملازمتهم فى قضاء حاجتهم من المدينة ، فكان لذلك أثر فى نشاطهم وعقليتهم وخبرتهم واجتماعيتهم .

# غذاء الطلبة

يا مجاور ! عمنك دابت !

م الطرشى ! والفول النابت !

م السلطة ! « « !

١ — أمامنا الآن مشنة من الخبز الرقيق اللدن أو المُلدن ، قد خلط قمحه بقليل أو كثير من دقيق الذرة ، وبجانبها مِلقاة من القرص أو « البنين » و « القراقيش » ، وهو صنف من الفرنىّ المتخذ من دقيق القمح المعجون بالسمن واللبن أو بأحدهما فقط مع قليل من الآخر .

وهذه ثلاثون قطعة من الجبن الأبيض ، قددتها أم المجاور لتمكث طويلا بدون فساد محتفظة بمادتها ، ولتتحمل النقل ، وليمكن حفظها فى سحارة الطالب دون الحاجة إلى وعاء ؛ وأهم من هذا كله ، لتكون أطول عمرا وأكثر اقتصادا ، إذ يأخذ المجاور منها بمقدم أسنانه أقل قدر يذوب مع لقمة الخبز المصحوبة بورقة الفجل أو الكرات ، أو يغمس اللقمة فى ماء وضعت فيه قطعة الجبن !

أما سمعت باقتصاد المجاورين وشحهم على أنفسهم ، حين يقولون إن المجاور « يغمس من ظل الجبنة ! » ؟ وهل

سمعت المحاورة التى كانت بين مجاورين يتنافسان فى الاقتصاد ، إذ قال أحدهما : إنى أعلق الجبنة وآتدم من ظلها . فقال له الآخر : إنك لمبذر ! كيف تعرضها للهواء فالفناء ؟ أنا أكثر منك اقتصادا ، لأنى أغطيها بطبق زجاجى ، وأغمس اللقمة من الظاهر ! وتلك محلبة أو كراز قد ملىء جبنا عتيقا أصفر ، مضى على تعتيقه فى دنانه أو بلاصيه أربع أو خمس أوست سنوات ، وفيه « المش » الأصفر اللذيذ ، ليزاوج الطالب بينه وبين الجبن الأبيض ، أو ليأكل منه فى البيت ، ويحمل الجاف المقدد معه فى الجامع عند الغداء ، أو فى لجة الصباح مع القرص التى يفطر بها .

ولكن ذلك الطالب الفقير الذى عدم أهله هذا الصنف من الجبن ، قد تملأ أمه هذه المحلبة بمخلل الخيار القديم البالى ، لأنه إدام أسرته . أما فى موسم تخليل الخيار أو اللفت ، فقد يتساوى الغنى والفقير من المجاورين فى حمل محلبة أو حق (بجمع) من الصفيح مملوء بهذا المخلل الحديث .

ذلك هو زاد الطالب أو « زوادته » فى العمالة المقبلة .

جلس الوالدان أمام هذه الأشياء ومعهما حقيبة و « خُرج » ، وأخذا يرتبان كل شىء فى محله من هاتين « العبوتين » بعد أن وضعا معهما صرة من الملابس النظيفة ، مطبقة فى منديل على غير نظام . لاحظ أنهما يضعان الجبن فى مكان مستور ، حتى لا يعثر

به الشرطى الذى يجمع « المكس » أو « عوائد الدخولية » عند مدخل مدينة طنطا فى ذلك العهد .

٢ - فليحمل الطالب فى جيبه أو منديله ، مع رغيفى الخبز اللذين أعدهما لغدائه ، أربع قرص مع قليل من الملح أو «الدقة» أو قطعة جبن مقدد ، يتبلغ بها بعد صلاة الصبح إلى حين تناول الغداء فى الضحى أو قبيل الظهر ، وذلك إفطاره . أما فى الغداء فقد يأتدم بجبنه ، أو يشترى قرصين أو أربعة أقراص من « الطعمية » بفلسين ، وإذا أراد مرقا أصاب من الفول النابت بزيته أو المدمس بزيته أو الكامخ ( السلطة ) أو « مخلل الطرشى » بفلس ونصف أو فلسين ونصف . وقد يضيف إلى ذلك كله حزمة من الكراث أو الفجل ، أو نصف رطل من الفول الأخضر ، بربع فلس أو نصفه أو بهما معا ، يجمع بينها وبين غيرها من الإدام .

وقد يشترك اثنان أو أكثر من المجاورين فى غدوة واحدة ، فيجمعون بين صنفين أو ثلاثة أو أربعة من الإدام ، وقد يثردون الفول النابت بالطعمية فتزيد فى دسمه ، أو يخلطونه والمدمس بالكامخ ( السلاطة ) وهنا تعلو وجوههم علائم البشر لتعدد الأصناف ويفتنّ كل منهم فى المزاوجة بين هذا الصنف وذلك ، ويتذوق أيهما ألذ ، هذا مع ذاك ، أو ذلك مع تلك ! وقلما تخلو وجبة عند المجاورين من الفجل أو الكراث ، ولذلك يكثر باعتهما

حول الجامع ، وتشاهد حقولها حول مدينة طنطا تشغل مساحة واسعة ، يخب فيها القطار ، أو تقطعها على ظهر الدابة فى زمن طويل .

٣ — إذا انتشر ذهب الأصيل فى الأفق ، حل وقت العشاء للمجاورين ، فيبادرون إليه استعدادا لدرس المغرب ؛ وهو فى كمّه وكيفه لا يزيد عن الغداء ، بل يكون خاليا من الدسم ، فليس فيه مدمس أو نابت ؛ وربما حمل المجاور معه إلى منزله مرة أو مرتين فى الأسبوع ، سمكة مقلية أو مشوية ، أو سمكة مملحة من « الرنجه » أو بعض « السردين » ، أو قطعة من « التونة » أو قليلا من الزيتون الأسود ، ببضع مليمات ، إذا كان من الأغنياء المتنورين . أما الحلوى الطحينية فقد تكون إداما منفردا يشترى المجاور منها بما لا يزيد عن فلسين اثنين .

ولكن هذا الطالب قد أخرج من سحارته كرات صغيرة أخذ يأتدم بها ، فما هى ؟ إنها بيضات صلقت وقددت فى الفرن حتى صارت فى جرم المح أو « الصفار » ، وقد كسى بغلالة رفيقة من الزلال الذى اصفر أو اسمر بعد أن كان أبيض ؛ ولقد أعجبت بهذه الطريقة فى حفظ البيض شهورا ، ولم أسمع عنها فى باب حفظ الأغذية !

هذا هو قوام غذاء المجاورين ، وهو غذاء أولى رخيص ،

يحتوى كثيراً من العناصر العاملة فى تغذية الجسم ؛ ولهذا يزول العجب من بقاء المجاورين أصحاء مع انعدام وسائل الصحة ، وما يظهر من « سوء » التغذية (١) .

ومن المهم هنا أن نشير إلى الشهية التى يتناول بها المجاورون طعامهم هذا ، فإنى لا أزال أذكر الطعم اللذيذ ، والشهية القوية

---

(١) بينا أفكر فى ذلك إذ عثرت اعتباطا على مقال عنوانه « أطعمتنا القومية » للدكتور على حسن الإخصائى فى الأغذية والأستاذ بكلية الطب ص ١٣٠ فى تقويم الهلال سنة ١٩٣٨ ذكر فيها ما خلاصته ، وهى ألصق بموضوعنا :

الطعمية : تصنع من الفول والخضر والبهار وتقلى فى الزيت . وهى سهلة الهضم يستفيد الجسم من عناصرها الغذائية كثيراً ، هذا فوق أنها شهية ، مغرية ، طيبة المذاق ، رخيصة الثمن .

يحتوى الفول على كمية من الزلال والنشويات ، وتحتوى الخضر على الفيتامين والأملاح المعدنية والسليلوز .

المدمس : يسمى « مسمار البطن » لبقائه مدة طويلة فى المعدة . وهو بطىء الهضم لسببين : ( ١ ) يبقى فى النار مدة طويلة ، فيتجمد زلاله ويصير هضمه صعبا . ( ٢ ) وجود الغلاف يحول دون تحلل المادة الزلالية والنشوية تماما . ولذلك يحسن قصره عند أكله لضعاف المعدة .

ويزيد فى قيمته الغذائية اضافة الزيت أو السمن إليه ، وأكله مع البصل الأخضر أو غيره من الخضر المصبحة ( الطازجة ) ، وإذا عصر عليه الليمون زادت الفيتامينات .

الثابت : أسهل الأطعمة الفولية هضما ، لأنه يؤكل مقشورا ، ولأن شرابه يحتوى عناصره مبسطة ، والكمون ( أو الزعتر ) يجعله شهيا .

الفجل والكراث ( وغيرها ) : لهذه الخضر مزية غذائية ، لاحتوائها على الفيتامينات والأملاح المعدنية ، ولوجود الألياف التى لا تهضم فتتجمع بكمية كبيرة فى الأمعاء الغليظة ، فتنبهها إلى الحركة ، وتساعد على طردها . اهـ

لفتات الخبز و«فراويته» وقد ذر عليها «برادة» الجبن أو شيء من «الدقة» ، وهي تذوب في اللعاب كأنها الرحيق المختوم ! وطالما يخطر ببالي تلك اللقيمات الجافة ، وقد كفنت في ورقة فجلة ، فزادها الجوع عذوبة وشهية ! أما طعمية «تل الحدادين» المحشوة «بالتقلية» فقد فاق طعمها طعم الكفته .

٤ — على هـــذا النحو يستمر أكل المجاور أسبوعا أو أسبوعين أو شهراً . لا يذوق الطبيخ ، إلا إذا طاف عليه طائف من الفلاحين يزور طنطا في سوق «الاثنين» أو جاء لشهود قضية في المحكمة ، أو لتجهيز عروس ، فإن أمه تحمّله إلى ابنها طنجيراً من الأرز أو الفريك ، وقد علاه دجاجة أو زوج من الحمام ، أو فطائر ثلاثاً من المرقق ( المشلتت ) أو عشرا من خبز الملكة ، أو الفطير الدمسى (الدمّاسى) وندر أن يحتوى هذا الطنجير على طبيخ أنضج «بالتقلية» مع اللحم . .

أما إذا أبطأ عليه هذا الزائر البشير ، فقد يشترك مع إخوانه في طبخة رجلة أو ملوخيه ، عليها رطل لحم أو ربع رطل من الدهن ، بحيث لا تزيد نفقاتها على بضعة قروش ، يدخل فيها ثمن أقة من الخشب الرومى للوقود بثلاثة فلوس ، إذا لم يستطيعوا الاحتطاب على الجسور والشواطىء ، وجمع الوقود الكافى للطبخ .

٥ — وقد تسوى هذه الطبخة ليلة عاشوراء أو المعراج

أو نصف شعبان ، إذا لم يسعفهم أهلوهم بنجدة من القرية . وقد يحمل الواحد منهم قليلا من فتات الخبز يثرد بها فى مسمط «الكوارع» أو يثرد فى شق رغيف عليه قطعة كرش أو كارع ، بقرش أو نصفه . وقد يحمل معه رغيفين إلى مطعم يتناول فيه صحناً من الخضر بثلاثين فضة (ثلاثة أرباع القرش) إلا إذا رفض الطاهى أن يعطيه الطبيخ بدون خبز ، فيضطر إلى دفع القرش كله وعوضه على الله .

٦ — هذا هو نظام الطعام عند عامة الطلبة من الدرجة الثالثة ويمتاز طلاب الدرجتين الثانية والأولى بأن لديهم راتباً من الخبز الطرى المصبح «الطازج» وهو خبز «الجراية» يصرف لهم ضحى كل يوم ، وقد يرفع نفقات الإدام أو يخفضه عند بعض المقترين ولو من الأغنياء .

ولست أنسى المجاورين وهم يتغامزون على الشيخ على ا . . . وهو يأتدم «بالمش» المتجمد فى سلطانية كبيرة وحزمتين من الكراث بنصف مليم ، مع أنه كان من العلماء الأغنياء المثرين ؛ وكذلك إعجابهم بالشيخ ز . حماد وهو يضع الطعمية فى مشطور الخبز (سندويتش) ويمسكه بأطراف أصابعه البضة النظيفة .

٧ — ويهمنا أن نذكر كيف كان يتفكه الطلبة ! هذا بائع الجميز وقف بحماره أمام باب الرخام ، فتسامع الطلبة برخص

سعره ، وهم خارجون وداخلون فى طلب الادام من باعة البقول والفجل والكراث . والمأكولات من الفول والطعمية وغيرها . فلا يفوتهم التفكه بمليم أو نصفه من هذا الجميز المصبح ! وذاك مجاور وقف أمام « طبلية » صف عليها البطيخ مشققاً ، كل شطبة بفلس أو نصفه ، فيأكل واحدة أو اثنتين يدفع ثمنها ثم ينصرف . أما ذلك الرجل الشامى فأمامه صينية من الفالوذج الغليظ أو المتجمد . قد قسمه فصوصاً ولونه بألوان جذابة ، ووضع بجانبه قمقما معدنيا ملىء بماء عطر ، ليذرمنه على مهلبيته . كنت أجرأ من غيرى على الوقوف أمام مثل هذا الرجل . دفعت إليه بفلس فقدم لى قطعة فى سلطانية صغيرة بعد أن رش عليها من الماء العطر ، ثم ناولنى ملعقة صغيرة . مر علىّ زميل ، فعزمت عليه أن يقاسمنى الحلوى فعرج علىّ وطلبت من الشامى ملعقة ثانية فقدمها . ولسوء الحظ أن مر زميل ثان فعرج علىّ ؛ ولما طلبت ملعقة ثالثة اغتاظ الشامى وناولنى الملعقة قائلا « كام حمار بميلم ؟ ! » فابتلعنا هذه السبة مع تلك الحلوى التى كانت تنزلق فى حلوقنا انزلاق الدرهم إلى صرة البخيل .

وقل من المجاورين من كانت تحمله رجلاه أمام دكان الفاكهى ليصيب منه شيئا ، وكان لهم فى صينيات الفاكهى المتجول ما يرغبون من نصف رطل من البلح أو العنب ونحوهما

٨ – آن أن نطوف فى أنحاء الجامع لنرى كيف كان الطلبة يستقون ، أو كيف كانوا يشربون . انظر إلى هذه القرب الموكوءة والمستندة إلى سياج (درابزين) ، الايوان الشمالى عند الحنفية الصغيرة . تأمل هذا الرجل الذى جلس على حافة صحن هذه الحنفية ، وقد أمسك بيمينه فم القربة بعد أن فك وكاءها وألقاها على البلاط ثم أمسك بيساره بضعة كيزان من الصفيح ! ووقف أمامه عدد عديد من الطلبة ، يتزاحمون على نيل كوز ماء يشربونه . هذا هو « عمك احمد » السقاء المأجور « المقيم » وأولئك هم المستقون ، يكثرون وقت الضحى وعند الظهر ، ويقلون فى الشتاء وقبيل الأكلات . وكلما فرغت قربة جىء بغيرها ، من القرب التى تملأ باستمرار ، ويحملها سقاءون آخرون إلى هذا المكان .

جاء « فرحات » السقاء المتنقل ، بقربته الخاوية ، فعلقها على مسمار وحمل أخرى مملوءة موكوءة ، وهرول بها نحو باب المقام ! إنه يحمل فى يده بضعة كيزان كذلك ليسقى الطلبة فى الجامع ، كى يخفف العبء عن ذلك السقاء المقيم ، ويريح بعض الطلبة من المجىء هنا للاستقاء ! وقد اختار باب المقام ليصيب نصيبا من « نفحات » الزوار وفلوس المتصدقين . يضايق مثل هذا السقاء أن يلتف المجاورون حوله لئلا يشربوا قربته بدون

أن ينتفع بشيء من زوار السيد ، ويرفض أن يعطى واحدا من الطلبة كوزا يحمله لأخ كفيف أو طالب كبير ، إلا إذا نفحه بقرصة أو لقمة، أو كان معه من المحسنين المتصدقين . وفى الجامع من مثل هذا السقاء عدد غير قليل .

على رأس هؤلاء السقائين شيخهم الشيخ « محمد السبيلجى » رحمه الله . كنا نراقبه حينما يمر صباحا وهو يطوف بالمزارات عليه جبة حريرية وقفطان أبيض كتانى مهفهف ، وعمامة بيضاء من طراز عمامة السيد « حسين القصبى »[1] رحمه الله . كم قربة حمل فى سالف زمانه ، حتى وصل إلى هذه المرتبة ؟ ! تعال معى ظهرا إلى شباك الصهريج الكبير ، لنشرب منه كوز ماء بارد ، ونتمتع بمنظر هذا الشيخ فى داخل الصهريج يراقب الواردين ، وقد ارتدى جلبابا أبيض وطاقية رقيقة من الكتان .

إنك تراه فلا تظن إلا أنه من « هيئة كبار العلماء » ، وبخاصة حينما يتوسط الاحتفالات ويستقبل أعيان المحتفلين ، كأنه من رجال البلاط بالجامع ، وسبحان مقسم الحظوظ !

---

(١) يقال إنه كان لديه شخص خاص للعمامة يقوم بلفها لقاء أجر شهرى

# منازه الطلبة ووسائل الترفيه عندهم

أشعر بأن هـذا العنوان — على طوله — ليس شاملا ، فإنى أريد به وصف حال المجاورين « خارج الجامع » ، فقـد يكونون فى عمل ، غير الدراسة طبعا ، وقد يكونون فى راحة أو يندمجون مع جماهير الناس فيما يتمتعون به .

١ — إذا زرت الجامع ضحى يوم الخميس ، رأيت عدد الطلبة فيه قليلا ، لانصراف المجاورين القريبة بلادهم إليها بعد درس الصباح ، ولم يبق إلا المقيمون القاطنون فى طنطا ؛ بعضهم فى درس الضحى نادراً ، وبعض يطالع دروس يوم السبت ثم يفطر ويغادر الجامع إلى المنزل ، أو ينتظر فيه قريبا أو زائراً قادما بالسكة الحديدية ، وبعضهم يهم بمغادرة الجامع إلى المنزل ليفطر فيه ، فالدراسة معطلة من ظهر الخميس إلى فجر السبت عادة .

فتش عن الطلبة فى هـذا الوقت ، وقت الفراغ ، تجد منهم من حمل ملابسه القذرة مع قطعة من الصابون والزرقة (الزهرة) وقطعة من المسد بفلس واحد ، وطشت من الصفيح أو بدونه ، قاصدا ترعة الجعفرية ليغسل فيها تلك الملابس ، فى الطست أو على حجر أبيض فى مصلى هناك ، قبل أو بعد أن يستحم بالماء والطين أو الماء والصابون والمسد .

ثم ينشر الملابس هناك على تكعيبة الكرم فى جنينة «العجيزى» وينتظر جفافها ، أو يحملها فى هذا الطسيت إلى البيت حيث ينشرها على حبله . وندر من الطلاب من كان يستأجر الغسالة لغسل ملابسه ، وكثر منهم من كان يجمعها لترسل إلى قريته فتغسل وتعود نظيفة ، مع شىء من الخبز والقرص والطبيخ وغيرها ، يحملها إليه قريب أو زائر . أما فى عصر الخميس فقد ينهمك فريق صغير من الطلبة فى إعداد طبخة رجلة أو ملوخية أو فول نابت أو نحوها .

وقد ينتشر بعض الطلبة ضحى أو ظهر الخميس أو صباح الجمعة فى مداخل المدينة ، يرقبون قدوم مسافر من قريتهم على ميعاد أوعلى غير ميعاد . والويل لى ولكل طالب مثلى ، إذا خرج إلى قنطرة سمنود القريبة من المنزل للتنزه ،ففاجأه أبوه قادما على غير ميعاد ، أو رآه قريب أو زائر فأخبر الوالد بملاقاتى على هذه القنطرة . إنه يريدنى على أن ألزم الجامع ولا أعرف البيت إلا فى الليل ، أو ساعة من النهار ، لأخرج منه مع مقودى ساعة الاستحمام فى الترعة لتغيير ملابسى ؛ على أنه كان يحرم على ذلك ، ويرى أن أستحم فى « الحمام » كل أسبوعين أو كل شهر مرة .

وكما كانت قنطرة سمنود من خير منازه الطلبة نهاراً ، فقد كان جسر محطة السكة الحديدية خيراً منها ، وذلك لوجود ملتقى

السكك الحديدية من شتى الأقاليم هناك ، ولتوارد القطر فى فترة الظهر والعصر ، ولكنها كانت ملهاة للطلاب فى غير يوم الخميس ، وفى الليل أيضاً حين كانت الإضاءة فى المحطة خيراً منها فى المدينة .

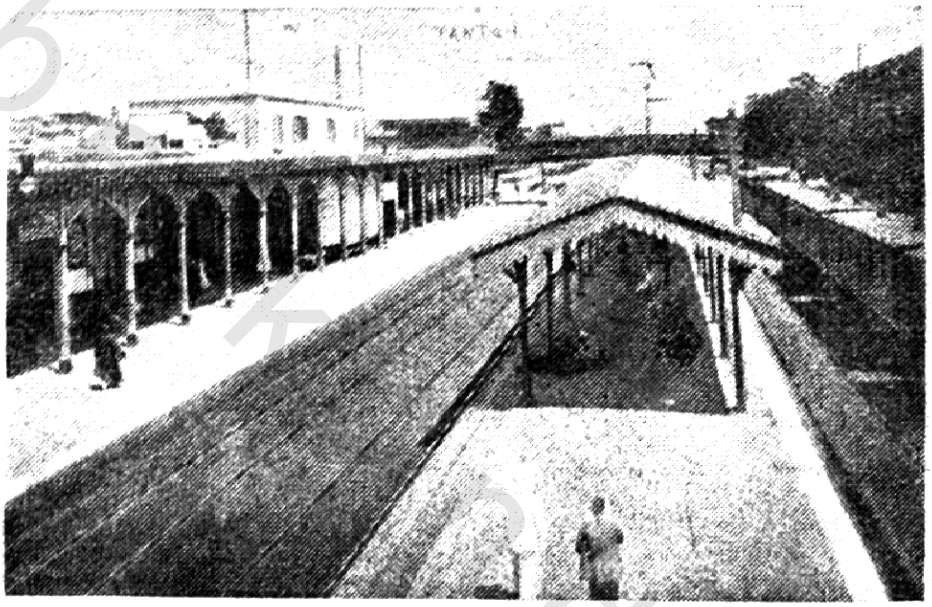

محطة السكك الحديدية القديمة بطنطا

وكان ورود القطارات السريعة ليلا ، وهى تتسلل إلى المحطة وتنساب ، انسياب الرقطاء فوق الرغام ، بأنوارها المتلألئة ، من المناظر التى تسرى عن نفس المجاور الذى يستضىء بقناديل الزيت فى الجامع . ولقد سمعت من طالب أنه صادف على هذا الجسر ، ذات ليلة ، امرأة متنكرة فى زى رجل ، ولما كشفت له عن أمرها أخذته رعدة لم تفارقه حتى عاد إلينا بالجامع . وليس ذلك بعجيب فى وقت كانت فيه الحشمة ملازمة لحجاب النساء ! ولقد بقى هذا

الجسر زمناً طويلا حتى أزيل بعد حادثة المولد سنة١٩٢٨م حين قتل هناك مئات من الموالدية ، وقد استبدل به الآن نفق عظيم جديد .

ولمن يُدعى من الطلبة لانتظار أبيه أو أخيه على قارعة الطريق أو فى المنزل ، فى بحر الأسبوع ، فرصة يغادر فيها الجامع قليلا أو كثيراً . وكان غياب الطالب المجـــد أو الحريص أبوه على مواظبته أو خروجه من الجامع ، يعد تفريطا فى طلب العلم ، فمن يُعنى بمقابلة الزائرين وملازمتهم فى قضاء لوازمهم لا يرجى خيره لضياع وقته بعيداً عن العلم ، وإن اتسعت معلوماته العامه أو الاجتماعية .

أما فى أيام الشتاء حين يكثر قصب السكر ، وفى أواخره حين يظهر الخس ، فللمجاورين المبـــذرين أو الأغنياء فرصة خروجهم إلى الحقول للنزهة وتناول شىء منها ، ولا يكاد يعدو ذلك مرة فى الاسبوع .

وقبيل مولد السيد البدوى تسنح للمجاورين خير فرصة يتنزهون فيها ، إذ يوجد يوم الأربعاء من كل أسبوع مولد أو « زيارة » لأحد الأولياء ، من أتباع السيد ، فى قرية قريبة من طنطا ، مثل نفيا واخنا وفيشا ، ومحلة الجوهرية ، كما سترى فى باب « الموالد » .

وكانت مباريات كرة القدم بالمدرسة الأميرية مرتاداً لبعض الطلبة المتصلين بالتلاميذ .

٢ — فى أوائل القرن العشرين كانت الموسيقى قليلة الذيوع بمصر ، وكذلك كان المغنون قليلا . وندرت الحفلات العامة للغناء والموسيقى ، ندرة كادت تجعلها فى حكم العدم . وكان للمقرئين والمطربين المشهورين منزلة تجعلهم قبلة الأنظار ومحط الرحال ، فقد كان الناس فى القاهرة يركبون المطايا ( الحمير والبغال ) من القلعة إلى بلاق ، ومن مصر العتيقة إلى الحسينية مثلا ، وفى المدن الأخرى يخترقونها من أقصى الشمال إلى نهايتها الجنوبية، يرحلون فى سبيل سماع واحد من أولئك المقرئين أو المغنين . ومع أن المذياع يسمعنا الآن صوت الشيخ على محمود كثيراً ، فلا يزال كثير من المستمعين أو « السّميعة » يهرعون إلى مقام الحسين لسماع القرآن والمولد النبوى الشريف وغيرهما منه . وكثير من الناس يذكرون ليالى المشايخ أحمد ندا ، واسماعيل سكر، والشيخ صادق وكذلك ليالى الشيخ يوسف وعبده الحمولى ومحمد عثمان وألمظ ، ومن على شاكلتهم .

لذلك اعتاد الناس فى أفراحهم دعوة الأصدقاء والأصحاب إلى حفلات طرب يحتفلون فيها بالموسيقى والغناء ، أو تلاوة القرآن الكريم وقصة المولد النبوى الشريف ، مع بعض قصائد

المديح . ولكثرة تزاحم الناس وإقبالهم على السماع كانت الشرطة تتولى حفظ النظام فى هذه الحفلات .

وقد كان اثنان من الرفاق مقرئين ، أحدهما حسن الصوت أو أقرب إلى أن يكون كذلك ، يدعى لإحياء ليالى المآتم والأفراح بتلاوة القرآن والقصة النبوية ، والآخر كان ابن أحد فقهاء القرية ، وكلاهما يقرأ القراءات السبع ، ويشتغلان بالقراءة على « القاعد » أى التلاوة مع النغم ، وكان يهمهما سماع المطربين للنقل عنهم ومحاكاتهم فى التطريب .

لهذا كله ، ولما جبل عليه المجاورون من السعى وراء كل منفعة مجانية ، كان لهم نصيب ضئيل من مقاعد هذه الحفلات ، وحظ وفير من الوقوف فى الشوارع والحارات ، حول سرادق أو منزل عين من أعيان طنطا ، أقيمت فيه حفلة من حفلات الطرب ، أو قراءة القرآن ، أو القصة النبوية .

وكان المدعوون إلى هذه الحفلات يرون حضورها تكليفا فلا يمكثون فيها إلا قليلا ، ثم تخلو الأمكنة لهؤلاء المجاورين ولم يُدعوا ، يمكثون فيها حتى مطلع الفجر ، ويزعم هؤلاء أن « الصيت » أو المطرب لا « ينجلى » إلا بعد نصف الليل ، فهم يلازمونه فى الشطر الأخير من الليل بحجة انتظار صلاة الصبح . من هنا كنت ترى أشباح المجاورين تتراءى أو تطارد فى هذه الحفلات

المجانيـة المحبوبة ، وكانت أخبارها تتنقل إلى آذانهم مثل أخبار الحرب أو أهم .

ولم يقتصر الترفيه عنهم على حفلات الطرب والقرآن والمولد بل تعدى إلى حفلات السمر المجونية التى كان يقيمها « أولاد البلد » فى الصاغة أو زقاق سيدى مسعود ، وحارة الزاوية ، أو لسماع المطربة ... المشهورة وهى تغنى : على رطل ونص ! ولست أدرى ماذا كان يحدو بنا إلى الوقوف أمام « تخت مصطفى حليم » وتعرضنا لرش الماء فى وجوهنا ، والنظر والاستماع إلى المناظر والأصـوات المحرمة المنبعثة من داخل « التخت » أو الملهى والمرقص ؟ !

ونختم هذا بالاشارة إلى حفلات « السباعى — الشاعر وغرام الطلبة بها ، وشدة أسفهم حين يسمعونه عند انتهاء « الوصلة » الأولى من الجلسة والاستراحة وهو يقول :

يا قهوجى لِمّ النقطه من زباينك !

واحذر من النكله وم الملـــيم !

# الحالة الصحية

عجيب أن يعيشوا وأن يتمتعوا بالحياة ! وأعجب أن يعمروا وأن يتجاوزوا الستين والسبعين من العمر ! وغاية العجب أن ينيف كثير منهم على المائة أو يتجاوزها ! أولئك قوم عاشوا أسوأ معيشة ، ناموا أقصر مدة واشتغلوا أطول وقت ، وحرموا طيب الغذاء ، ولم يعرفوا من الفاكهة إلا ماقرءوا من وصفها ، إن كان أدب الوصف قد عثر بهم أو عثروا عليه فى شاهد من شواهد النحو والصرف أو البلاغة ! يقطعون النهار وطرفا من الليل جلوسا على حصير فوق بلاط ، بل قد يقضون ساعات من السَّحَر فوق الرخام فى قر الشتاء وزمهريره ؛ ثم هم لايرتدون فوق ملابسهم الرقيقة إلا أردية لاتدفىء من برد ، ولا تدفع من قُر . يرون فى الثوب الخلق شعار «الفتوح» ويتقربون الى شيوخهم ويستدرُّون عطف الممتحنين بما يلبسون من رث الثياب وخشن الملابس .

ينامون فى حجر ضيقة فاسدة الهواء ، قليلة النظافة ، ملئت شقوق جدرانها «بالذهب» واتخذ براغيثها من ترابها مخبأ تخرج منه إذ اغمضت أعينهم فتمتص من دمائهم ماينفخ أجسامها ، وهم فى يومهم — من شدة تعب النهار — غارقون ! ألم تسمع بساكنى

حجرتنا وكانوا ثلاثة عشر ! إذا جاءوا إليها فى الربيع ليلا خلعوا نعالهم خارجها ، وشمروا عن سيقانهم فدخلوها ، وطافوا بأرجائها ثم أخذوا يخرجون منها . وقد كسيت أرجلهم جوارب حمراء نسجت من البراغيث ؟ ! إنهم يفركون أو يدلكون سيقانهم بشدة ليخلعوا عنها هذه الكسوة ، ثم يترددون على الغرفة حتى يمسى فى استطاعتهم الدخول إليها والاستقرار بها ، كى يقضوا بها ساعات معدودة فى النوم !

هل رأيت أولئك الشيوخ وقد زرعوا أنفسهم فى أرض الجامع ليلا ، وأمسك كل واحد بوريقات من كتاب ردىء الطبع صغير الكتابة دقيق الخط ، وهو لا يكاد يتبين الحروف على ضوء ذلك القنديل الزيتى ، المذبذب الذبالة ، إذ تلعب بها نسمات العشى فيخبو ضوءه تارة ويبص أخرى ! ؟

أما طعامهم فيشمل كل حرّيف ومغلظ ، وهو وإن احتوى المواد الغذائية ، فلا تكتسب منه أجسامهم إلا مناعة من كثرة ماحوى من جراثيم ، وما شمل من بويضات وديدان !

وإذا «زارهم الشيطان» ليلا أصبحوا إلى ترعة ضحلة للاستحمام فيها ، أو قصدوا إلى مغطس أو مستحم ، قد استبدل بما فيه من ماء ملح عرق مئات المستحمين ، وقد اختلط بجراثيم شتى ، فيغتسلون فيه متطهرين من الحدث الأكبر والأصغر ، والله يعلم

أنه ماء غـــير مطهر وإن زاد على قلتين !

أما إذا مرض أحدهم فقد يتداوى بماء « الطرشى » عملا بمذهب « وسن التداوى » ، وقد يستشفى بدعوات رجل صالح، أو يتمرغ فى مقام بعض الأولياء !

والحمد لله إذ كان شرابهم من ماء القرب ، وهى كثيرا ماتطلى بالقار ، وكثيرا مايتحلل بعضه فى الماء فيعطيه طعما خاصا ، وقد جاء مطهرا صحيا غير مقصود !

أما مياه الحب ( الزير ) فى المنازل فقد تكون آسنة أوغير مروقة ؛ ولا تنس مياه الحنفيات المالحة ، ومياه المراحيض المكشوفة الممزوجة بما تناثر من جص ودهاكة ، وما يسبح فيها من حشرات وديدان ، وهذا قبل أن تعمم الحنفيات ! وتغطى الخزانات !

ألا ترى معى أن شخصا يحيا هذه الحياة أربعين عاما أو أكثر أو أقل جدير بأن يهنأ بحياته العجيبة !؟!

# المشيوخاء

المشايخ هم العلماء، ويعرفون بالعمائم الكبيرة المتهدلة، والملابس الواسعة، وبخاصة «الفرجية» المتخذة من الجوخ، ذات الأكمام العريضة الواسعة. وبسيرهم الهادىء فى الطريق، مطرق رءوسهم، لاينظرون يمنة ولا يسرة. وقلما ترى منهم شيخا كبيرا إلا وأثر «النشوق» فى سبابته وإبهامه وفى منخريه، ظاهرا بلونه الأصفر، وفى منديله كذلك. ولعلك رأيت — فى التمثيل — نابليون وهو يستنشق النشوق، ويقولون إنه أخذ هذه العادة عن علماء الأزهر، حينما جاء مع الحملة الفرنسية إلى مصر.

ومعيشة الغرباء منهم، أو من لا بيوت لهم بطنطا، لاتعلو كثيرا معيشة أغنياء الطلاب، لأن مرتباتهم ضئيلة: ٢٥ قرشا للدرجة الثالثة، ٥٠ قرشا للثانية، ٧٥ قرشا للدرجة الأولى فى الشهر، ومع ذلك قد يدخر بعضهم من هذا الراتب حصة فى بيت صغير يسكنه.

وكان التواد والتسامح يسود الأقدمين منهم، فيرسل الشيخ الدماطى علبة النشوق، إلى الشيخ الشبينى مع أحد الطلبة، ثم يسأله ماذا قرر فى مسألة كذا، بلا غضاضة ولا تكبر.

ويرى الشيخ زميله بجانب الأسطوانة المجاورة، وقد زاد

عدد طلاب درسه على أضعاف من يحضرون عليه ، فلا يتأثر لذلك ، وإن وجد تحاسد أو تقاطع بين بعضهم فلا يصل إلى أعماق قلوبهم ؛ بل قد يأخذ شكلا هزليا أو تهكميا ظريفا مقبولا .

من ذلك ما رواه أحد الشيوخ ، أن عالما رأى جاره نائما بجوار أسطوانته ، فقال للطلاب من حوله ، بصوت مرتفع : الفتنة نائمة ، يريد التعريض بجاره العالم . فاستيقظ الشيخ النائم ، وقال « لعن الله من أيقظها » .

أما رابطتهم بالطلبة ، فكان لهم على المجاورين سلطان ، يفوق سلطان الوالد على ابنه ؛ فهم يحترمونهم ، ويقبلون أيديهم ، كلما قابلوهم فى الطريق ، وعقب كل درس ، وقد يحملون نعالهم ، ويقومون بخدمتهم ، تقربا إليهم ومحبة فيهم ، كما يحتملون منهم الشتم والضرب حتى بالحذاء الأحمر ، يتطلبون بذلك مرضاتهم ويعتبرون كل هذه الإهانات « علامة الفتوح » ويستبشرون به فى أيامهم ودروسهم . أما ما يراه الشيخ من رأى ، وما يعتقده من عقيدة ، فهو مقدس عند طلبته ، لا يعارضونه وإن خالف الواقع .

ويرتدى بعض العلماء الذين يمنحون « كسوة التشريف » فى بعض المناسبات والاحتفالات هذه الملابس الرسمية ليمتاز بها ، كما كانت الحال فى العصور القديمة .

وكما تختلف السادة العلماء فى صورهم وأشخاصهم وأصواتهم، كذلك يختلفون فى « لوازمهم » وأريد بها ما اعتادوه من قول وحركة أثناء تقريرهم أو شرحهم دروسهم ، وقد تدل تلك الألفاظ أو « اللازمة » على أن هذا الشيخ ريفى جاف الطبع أومدنى رقيق الألفاظ ، كما تنم مخارج حروفه على مديريته ، من شرقية أو بحيرية ؛ فترى هـذا يقول دائما وبين كل جملتين « يا مولانا » يتغنى بهـا أو « يا سـيدنا » أو « قال إيه ؟ » أو « ياويد » مال « ياواد » محرف « يا ولد » ، وكانت هذه « ثقيلة » و خفيفة ، تبعا لظل الشيخ ودرجة محبته فى نفوس تلاميذه .

هذا ولما كان المرحوم الشيخ مصطفى الحندى » ممن لازمتهم طويلا ، وقد احتل من نفسى منزلة ممتازة ، رأيت أن أترجم له كنموذج لخيار الشيوخ رحمهم الله .

# الشيخ مصطفى الجندى

هيهات أن يأتى الزمان بمثله  إن الزمان بمثله لبخيل

كان للطلاب أن يختاروا أستاذهم ، فيفضلوه على غيره ، لعلمه أو لأدبه ، لطول درسه أو قصره ، لمواظبته أو عدم مواظبته .

وقد وجدنا فى هذا الشيخ صفات كثيرة اضطرتنا إلى ملازمته وحضور بعض كتب المذهب عليه .

كان هذا الشيخ اجتماعيا ، خبيراً باساليب الحياة وشئونها ، وكان ذكيا ، وقد يجنى على المرء اجتهاده ، ولم يكن كغيره من الشيوخ الذين ينكبون على المذاكرة ويحبسون أنفسهم فى الجامع أو فى خلوة ، بل يكفيه المرور على الدرس سراعا ، وقد يجد من الطلاب سآمة فى بعض الأوقات ، فيستطرد من الدرس إلى حكايات تحمل فى طياتها كثيرا من الفكاهة والأدب ، والنصائح المنظومة والمنثورة ، فيقضى الدرس كله أو شطرا منه ، بناء على طلب الطلبة ، فى شأن من الشئون العامة ، فى ثوب أدبى ظريف ، وقد كان درس الفقه يوم الخميس ضحية هذا الميل من جانب الشيخ والطلبة جميعا .

مكثنا فى صحبته ست سنين أو أكثر ، حضرنا فيها ثلاثة الكتب الأولى من فقه الشافعى ، وقد سنحت لى فرص كثيرة فى الجلوس معه فى وقت السَّحَر ، قبيل الفجر ، حين أحضر له « كنكة قهوة » بنصف قرش يدفعه ، ثم يسرح بنا الحديث فى شئون خاصة وعامة ، فمكّن هذا الانفراد معه ، منزلته من نفسى وسَرَت إلى روحى موجة من روحه ، وقد أدهشنى منه تنبؤاته عن التعليم فى مصر ، وما سيحدث فيه من الانقلاب .

فكان يحدثنى فى سنة ١٩٠١م بما كان من نظم حديثة فى الكتاتيب وما سيكون فى المعاهد والمدارس ، وكانت نصائحه فى الحياة ، تشف عما قاسى فيها من ظروف أطاحت بمائة الفدان وآلتها البخارية الثابتة التى ورثها عن أبيه ، وكان أقطعها إياه اسماعيل باشا ، فلم تلبث فى حوزته بعد وفاة أبيه الشيخ محمد الجندى فى سنة ١٣١٢هـ ( ١٨٩٤م ) أكثر من عشر سنوات .

وقد نسب ذلك كثير من الناس إلى اشتغاله بعلم الكيمياء . ولكنه أشار إلى سداد دين جلبه عليه سلوك ابنه .

وقد حمله ضياع ملكه ، على الهجرة من مصر ، إلى دمشق سنة ١٩١٤ م بعد أن أسند إلى ابنه المرحوم الشيخ السيد وظيفة إدارة المكتبة الأحمدية ، وهى التى أسست على ماوقفه الشيخ الجندى الكبير ، من مجموعات الكتب الخطيه النادرة .

رحل إلى دمشق سنة ١٩١٤ م وأقام بها وتزوج وولد له ولد أسماه محمدا ، ثم توفى سنة ١٩٢٣ م [١]

وقد جلس فى الجامع الأموى بدمشق، وهناك وجد المغفور له الشيخ بدر الدين الموصلى البغدادى ، ( والد رئيس جمهورية سوريا الآن ١٩٤٢ ) آخر عالم محدث ومفسر على ظهر الكرة فافرغ له مكانا فى دار الحديث بدمشق ، واتصل بالملك فيصل ، فأعطاه خمسمائة دينار من الذهب .

ومن عجب أن الشيخ ، فى خلال أحاديثه الاجتماعية ، كان يذكر علماء الشام والأتراك وعلماء الشرق عامة ، ويحكى عنهم حكايات، تدل على أنهم دون علماء الأزهر تبحرا فى العلم والفهم . ولست أنسى ماحكاه عن المصرى الذى رحل إلى الشام وادَّعى أنه من علماء الأزهر ، فجلس فى حلقة ضمت علماء الشام منتظرا قدوم شيخ العلماء ، ثم أسرَّ إلى من بجواره أن يرشده إلى شيخ العلماء حين قدومه ، فلما رآه من بُعد ، قام إليه واحتضنه قائلا ! ماشاء الله ! أهلا بنور العلم ! هكذا يكون الصلاح والتقوى : فلم يكن من الشيخ إلا أن قال : والله أعلم ، فلم يُلق المصرى درسا ، وبقى مقربا لدى الشيخ ، إلى أن صمم على العودة إلى

---

(١) هذا ماأملاه على ابنه ولكن علمت من البحث عن حياته بدمشق أنه فى شهر اب سنة ١٩١٩ هام على وجهه فلم يوقف له على أثر ، واختلفت الروايات فى موته .

مصر ، فهرعوا لتوديعه ، فوجه إلى علماء الشام السؤال الآتى : ماذا كانت تسمى السيدة « أم قويق » قبل أن تنجب السيد « قويق »؟ وقد حار علماء الشام فى ذلك ومكثوا مدة يراجعون الكتب للبحث عن جواب هذا السؤال ، فكتبوا إلى مصر يستفتون ، فكان الجواب ، أن هذا الاسم يطلق على البومة ، وأزالو الغشاوة التى وضعها المصرى على أعينهم .

أما حكاية التركى الذى كان يفسر الآية « والسماء ذات الحبك » فقال : السماء ماعلا وارتفع ، أما الحبك فشىء لانعرفه نحن ولاأنتم ؛ فهى حكاية مشهورة . ويظهر أن كان لذلك بعض الأثر فى رحلته إلى الشام حين ضاقت به مصر بما رحبت .

وقد أسعدنى الحظ بلقاء ابنه المرحوم الشيخ السيد الجندى أمين المكتبة الأحمدية فى اكتوبر سنة ١٩٣٩ رمضان سنة ١٣٥٨ هـ فأملى على شيئا من شعره ، قاله بعد مغادرتى طنطا وقبل سفره إلى الشام . من ذلك قوله وهو ليس فى المرتبة الأولى :

هى المقادير لازيد ولا عمرو
مسترسلات على ما أوجب الأمر
تسعى وتطلب ماتعنيه من أمل
كأن عقلك ممزوج به خمر

فاطرح همومها وسلم ، لاتعارضها

فالأمر لله إن برّ وإن بحر

أين الملوك إذا ماعسكروا ضربت

لهم طبول الهنا والليل معتكر

أين الشيوخ الألى والعلم حرفتهم

والدرس مجمعهم ،للفضل قدنشروا

أين الذين مضوا والنوم فارقهم

خوفا من الله من نار لها جمر

الكل بادوا ببطن الأرض مرقدهم

والرب يسألهم عما به أمروا

فإن علمت بأن الحال هكذا لا

تفرح بدنيا إذا جاءتك ياعمر

وقوله فى نظام سنة ١٣٢٦ (١٩٠٩م) ، ولم يكن راضيا عنه

أراك رعاك الله تصبو إلى العلا

بشكل نظام العلم فى طابع النحس

وتدخل فى أسر لأجل دراهم

توافيك للتعليم بالثمن البخس

ولاتنس يوما إن أتاك مفتش

يدير نظاما بالتفلحس والهلس

ذئاب أقاموا فى المساجد يبتغوا
تجمّع دنيا من قفا الوقف والحبس
سلام على الدنيا فقد شاب قرنها
وما الخير إلا فى التباعد عن رجس

وقال بيتين عند تشريف الخديو عباس مدينة طنطا فى رحلته الأخيرة سنة ١٩١٤ ، واجهه بهما ، وبعد سماعه لهما (غادر القطر فلم يرجع) طلب من الشيخ كتابة هذين البيتين فى ورقة ، وأنعم عليه بمبلغ عظيم من المال :

« عباس باشا » أتى بالعز مبتهجا
فأصبحت طنتـــدا تزهو برؤياه
وقد دعاه أبو الفرحات ملتمسا
نور الرســـول ، وبالإقبال حياه

وقال قصيدة وهو فى حالة أخذ، منها :

تقول لمن حلالا أو حراما ... فما فى الوقت من يرعى الذماما
وما التوفيق إلا من إله ... وليس النصح ينفع من تعامى
إذا أعطاك ربك لا تبالى ... فبـاب الله مفتوح دواما
فقم بالليـــل معتكفاً وصلى ... عسى مولاك يرفعك المقاما
فما الدنيـا وإن متعت فيها ... حلالا كان ذلك أو حراما
سوى حلم يراه المرء ليلا ... فتقوى الله أفضل ما يسامى

وقد كنا نحفظ عن الشيخ ( رحمه الله ) أبياتا نراها تصور بعض خلقه وأفكاره وآرائه .

١ — منها رأيه فى الدنيا وتقلباتها ، وكان يتمثل فى ذلك بالأبيات :

إذا أقبلت كادت تقاد بشعرة وإن أدبرت كانت تقُد السلاسلا

---

إذا تم شيء بدا نقصه ترقب زوالا إذا قيل تم

٢ — وكان لا يثق بالناس ، لعلمه أن كل واحد يسعى وراء مصلحته ، ويرى أن من الكياسة سياستهم برفق ، ومداراتهم ، ومعاملتهم بحذر . ويتمثل فى ذلك بالمقطعات الآتية :

صحبت الأنام فألفيتهم وكلٌّ يميل إلى شهوته
وكلٌّ يريد رضا نفسه ويجلب ناراً إلى برُمته
فلله در فتى عاقل يدارى الزمان على فطنته
فيلبس للدهر أثوابه ويرقص للقرد فى دولته

---

نصحت فلم أفلح وغشوا فأفلحوا
فأوقعنى نصحى بدار هوان
فإن عشت لم أنصح ، وإن مت فالعنوا
ذوى النصح من بعدى ، بكل لسان

---

ولما صار ود الناس غشا  جزيت عن ابتسام بابتسام
وصرت أشك فيمن اصطفيه  لعلمى أنه بعض الأنام

---

خذ من الناس ماتيسر  واترك من الخلق ماتعسر
إنما الناس كزجاج  إن لم ترفق به تكسر

---

قالوا الزمان تغير ، قلت ماصدقوا
إن الزمان على التحرير منقاس

. . . . . .

وما تغير إلا حالة الناس

٣ — ومن أظهر صفاته ترفعه عن الملق والدهان والمصانعة والمداجاة ، وهى منتشرة فى علماء هذا الزمان ، واعتزازه بنفسه وصونها عن الابتذال . مع أنه كان يعلم أن هذه الصفات نذير الحرمان ، وسمات التأخر . وكان يتمثل فى ذلك بقول الشافعى وغيره :

أمطرى لؤلؤا جبال سرنديب وفيضى آبار تكرور تبرا
أنا إن عشت لست أعدم قوتا  واذا مت لست أعدم قبرا
همتى همة الملوك ونفسى  نفس حر ترى المذلة كفرا

---

وليس اكتساب الفضل يانفس فاعلمى
بميراث آباء كرام ولا صهر

ولكن فتى الفتيان من راح واغتدى
وحصل علما بالتجلد والصبر
فإن نال علما عاش فى الناس سيدا
وإن مات قال الناس بالغ فى العذر

---

فلولا الضرورة ماجئتكم وعند الضرورة تأتى الكنيف

---

وكم من يد قبلتها لضرورة وكان بودى قطعها لو أمكنا

٤ — ومما كان يتمثل به فيما يختص بشخصه :

اذا أردت أن تعرف مقامك ، فانظر حيث أقامك .

---

خذ من علومى ولا تركن إلى عملى
اجن الثمار وخل العود للنار

---

وكنا نسمع منه :

إن البطالة والكسل أحلى مذاقا من عسل
إن لم تصدقنى فسل من كان مثلى فى الكسل

---

من عاشر الأشراف عاش مشرفا
ومعاشر الأنذال غير مشرف
انظر تر الجلد الحقير مقبلا
بالثغر لما صار جار المصحف

---

بهذا وأمثاله ، كان يجتذب نفوسنا ، ونرى فيه مثال الشيخ الكامل .

# مشيخه الجامع الأحمدى

كان شيخ الجامع يتولى إدارته وتصريف شئونه بإرشاد الأزهر . وهو أكبر الشيوخ وأعلمهم ، وكثيراً ما كان يختار من بين علماء الأزهر الشريف . وفى السنوات العشر التى قضيتها بالجامع ١٨٩٩م — ١٩٠٨م كان شيخه هو الأستاذ الجليل المغفور له الشيخ ابراهيم الظواهرى ١٨٩٤م — ١٩٠٧م ١٣١٦هـ — ١٣٢٦هـ اختاره الجناب العالى من خيرة العلماء الصالحين بالأزهر الشريف ، ليتولى تنظيم إدارة الجامع ، فكانت أيامه خير أيامه ترتيباً ونظاماً وحيوية ( قبل نظام سنة ١٣٢٦هـ ) ، فقد كان للطلاب سجلات كالأزهر وللمساكن نظام كنظام أروقته ، ولطلبة كل جهة شيخ ، هم المرحومون السيد محمد عبد الرحيم للغربية ، والشيخ بيومى أبو ريا للمنوفية ، والشيخ السنتريسى للشرقية ، والشيخ مرسى على طبل للبحيرة . وفى زمنه تضاعف إيراد صندوق النذور بالمحافظة عليه ، وجمعت أشتات الكتب المتفرقة بالمكتبة الأحمدية سنة ١٨٩٨ م حتى بلغ عددها ٨٨٧٠ مجلد منها ٣٤١٥ مخطوط ، وبها مؤلفات بخطوط بعض المؤلفين ، أمثال العلامة الدردير والعطار وابن قاسم والزرقانى وغيرهم ؛ كما دخلت فى الجامع العلوم الحديثة ، مثل

الحساب والخط والجغرافيا . وصار بحق يدعى الأزهر الثانى .

وبعد وفاته صدر الأمر بقانون النظام الحديث ( ١٣٢٦هـ - ١٩٠٧م ) فامتحن الطلبة جميعا ، ورتبوا فى السنوات النظامية ، وروعيت مواعيد الدراسة بدقة . وفصلت طرق المزارات عن الجامع بسياج خشبى غليظ ، لا يزال إلى الآن ، وكانت تغلق أبوابه وأبواب الجامع على الطلبة فى أوقات الدروس .

وفى هذه المدة تولى المشيخة المرحوم الشيخ محمد الرفاعى مدة قصيرة ، أعقبه المرحوم الشيخ محمد حسنين العدوى ، وفى زمنه أنشىء المعهد الأحمدى وتم افتتاحه فى ٢١ من شوال سنة ١٣٣١هـ ( ٢٢ من سبتمبر سنة ١٩١٣م ) .

ومن أشهر مشايخ الجامع الأحمدى والمعهد :

١ — المرحوم الشيخ محمد أبو النجا : خلع المغفور له محمد على باشا عليه خلعة لا تزال عند ذريته .

٢ — المرحوم الشيخ محمد الطوخى .

٣ — » » محمد عماره .

٤ — » » السيد إمام القصبى .

٥ — » » محمد القصبى .

٦ — » » ابراهيم الظواهرى ١٨٩٤-١٩٠٧م

٧ — المرحوم الشيخ محمد الرفاعى : لمدة قصيرة .

٨ — المرحوم الشيخ محمد حسنين العدوى ( انتقل مديرا عاما للأزهر والمعاهد الدينية ) .

٩ — الشيخ محمد الأحمدى الظواهرى : للمرة الأولى ( يناير سنة ١٩١٤ — أكتوبر ١٩٢٣م )

١٠ — المرحوم الشيخ عبد الغنى محمود : توفى وهو شيخ

١١ — « « محمد الأحمدى الظواهرى : ثانية ( إلى أكتوبر سنة ١٩٢٩ م ونقل شيخا الأزهر

١٢ — المرحوم الشيخ محمود الدينارى : سنة ١٦٣٤ .

١٣ — « « عبد المجيد الشاذلى .

١٤ — الشيخ محمد سليمان السرتى : ١٩٣٨

١٥ — « سليمان نوار : منتدبا .

١٦ — « ابراهيم الجبالى : ١٩٣٨ — ٩٤١ .

١٧ — « محمد عبد الفتاح العنانى .

١٨ — « احمد حميدة : سنة ١٩٤١ .

١٩ — الشيخ محمد عبد الله يوسف الجهنى من ٨/٢/١٩٤٣،

٢٠ — الشيخ الحسينى سلطان : الآن ( ١٩٤٧ ) .

وقد رأينا أن نترجم فى المشيخة للشيخين الجليلين ، الشيخ ابراهيم الظواهرى وولده الشيخ محمد الأحمدى ، لوثيق صلتنا بهما ومعاصرتنا لهما .

# الشيخ ابراهيم الظواهرى

تولى المشيخة ( ١٢١٢ هـ — ١٣٢٥ هـ ١٨٩٤ م — ١٩٠٧ م )

شجرة أصلها ثابت وفرعها فى السماء ، سيماها الصلاح والتقوى ، وشعارها عمل البر والخير . تلك هى أسرة «الظواهرى» وقد ترى وصفها واضحا فى نسبتها إلى « الظواهر » ظواهر مكة أى ضواحيها . وإن لم يكفك هذا فى الدلالة ـ وما أبلغه ـ فإن والد هذا الشيخ ابراهيم ، وهو ابراهيم الظواهرى الكبير ، عاش من العمر ١٣٥ عاما حج فيها ٧٢ حجة وصام دهره مائة عام . وقد خلف أربعة ذكور ، هم ابراهيم وهو أكبرهم ، وسعيد وعبدالكريم ومحمد ، توفوا جميعا ماعدا الشيخ ابراهيم . وكان زواجه بعد الستين من عمره وتوفى سنة ١٢٦٤ هـ ١٨٤٨ م

أما مترجمنا الشيخ إبراهيم إبراهيم الظواهرى فقد نشأ مولعا بحب القرآن الكريم فبعثه والده إلى الجامع الأحمدى سنة ١٢٤٨ هـ — ١٨٣٢ م أى قبل وفاته بستة عشر عاما حفظ فيها القرآن وطلب العلم . ولما توفى والده عاد إلى بلده الجفف مركز الصوالح ( هيا الآن ) شرقية ، وأقام هناك عشر سنوات جمع فيها ثروة قوامها ٤٠ فدانا من الأرض كوّن منها

مايسمى « كفر الشيخ الظواهرى » . ثم حُبِّب إليه العلم فعاد إلى الأزهر ، وانتظم فى سلك طلابه ، وحضر على كبار شيوخه كالخضرى والأشمونى والعروسى ، رحمهم الله ؛ حتى أذن بالتدريس فى عهد الشيخ العروسى سنة ١٢٨٢ هـ ( ١٨٦٥ م ) .

مكث الشيخ يدرس بالأزهر كبار المؤلفات فى علوم اللغة والدين ، وكان شيخا لرواق « الشراقوة » إلى أن عين شيخا للجامع الأحمدى فى سنة ١٣١٢ هـ ( ٥ من أبريل سنة ١٨٩٤ م ) فذهب إلى طنطا وبقى هناك ١٤ عاما ، أتم فيها كثيرا من الإصلاح فى الجامع كما سبق ، وأسس كثيرا من المؤسسات الخيرية بطنطا وفى ضيعته ( كفر الشيخ الظواهرى ) وضيعات أخرى شركة بينه وبين أولاد إخوته ، إلى أن اختاره الله لجواره فلقى ربه راضيا مرضيا فى يوم ٥ من أغسطس سنة ١٩٠٧ (٢٥ ج ٢ - ١٣٢٥ هـ ) ودفن بمسجده الخاص به فى طنطا .

كان منزله بطنطا أضوأ منزل بها ليلا ، ومسقطا للعافين والسائلين نهارا ، فبابه الشمالى المطل على ترعة الجعفرية واسع المدخل ، على جانبيه حجرتان أو منظرتان تغصان بالزائرين من خيرة رجال الدين وأحوج رجال الدنيا فى الهزيع الأول من الليل ؛ وبابه الجنوبى المطل على شارع السباعى لا يقل اتساعا عن الباب الشمالى ، وعن يمين الداخل منه حجرة ينعقد فيها حضرة

السادة الشاذلية صباحا ومساء ، على يد مقدمهم « أخينا » الشيخ محمد الأحمدى ، أصغر أنجال الشيخ. وفيما عدا ذلك فالمنزل عامر بالغادى والرائح من طلبة العلم والإحسان ، والمسافر والمقيم ، من الأقارب والواصلين .

وتجاه منزله بشارع « السباعى » بالكفرة الشرقية بنى الشيخ مسجدا خاصا فى سنة ١٩٠٦ أعد فيه مدفنه ومقامه . وقد وقف عليه ١٤ فدانا من أجود أطيانه بناحية العلاقة مركز ههيا شرقية ، وعقارا بطنطا . وبمسجده هذا تقام الشعائر الدينية ، وتؤدى فريضة الجمعة ، وتقام حضرة الاخوان الشاذلية صباحا ومساء . وله وقف على قراءة ربع القرآن كل يوم ، وربع دلائل الخيرات ، وعلى عالم يعلم الناس شئون دينهم ، وأحباس أخرى على خيرات توزع فى المواسم والأعياد .

وقد أسس الشيخ مساجد أخرى فى ضياعه وضياع أولاد إخوته ، تقام بها الشعائر الدينية ولها وقف خيرى يصرف ريعه على ذلك .

وعلى الرغم من كثرة هذه الخيرات والأحباس فقد ترك الشيخ حوالى ٢٥٠ فدان تركة مباركة طيبة .

وقد بارك الله للشيخ فى ماله وولده ، فترك ، غير المال وغير ملوب تفيض حبا واحتراما ، ثلاثة أبناء من أجلاء العلماء :

١ ـ أكبرهم المرحوم الشيخ محمد الشافعي : تخرج فى سنة ١٣١٥هـ ١٨٩٧م وتوفى سنة ١٩٤٠م بعد أن ربى كثيرا من العلماء والقضاة ، وكان شيخا لمعهد الإسكندرية ، وعضوا عاملا باحثا فى هيئة كبار العلماء ، فأخرج رسائل فى فنون كثيرة .

٢ ـ والمرحوم الشيخ محمد الحسينى : تخرج فى سنة ١٩٠٣م ١٣٢١هـ وتوفى سنة ١٩٤٥ وكان من خيرة العلماء الصالحين ، خرج كثيرا من العلماء والمربين ، والقضاة الشرعيين ، وانتدب للتفتيش فى المعاهد الدينية مرتين . وله أبحاث قيمة ومؤلفات عدة.

وكان أستاذ التفسير فى تخصص المادة بكلية أصول الدين ، وهو فوق هذا كله رجل اجتماعى ، لو قدر له تولى مناصب الدولة الإصلاحية ، لكان من خيرة المصلحين الاجتماعيين . ومن مميزاته أن فكره ليس محبوسا فى الدائرة العلمية ، بل ترى من خلال حديثه ما يملكه من حرية فى الرأى ، وطلاقة فى التفكير والبيان ، واستقلال فى الفهم ، لا يمنعه من نقض آراء القدماء والمحدثين ، مع دماثة فى الخلق ورقة فى العاطفة .

٣ ـ أما أصغر الأولاد فهو الشيخ محمد الأحمدى الظواهرى وقد تولى مشيخة الجامع الأحمدى دفعتين . ولهذا نفرد له المقال التالى :

# الشيخ محمد الأحمدى الظواهرى

١٨٧٨ — ١٩٤٤

ولد سنة ١٨٧٨م ١٢٩٦هـ وقرأ القرآن بالأزهر الشريف، وحضر العلم على شيوخه، وفيه تخرج سنة ١٩٠٢م ١٣٢٠هـ إذ حاز شهادة العالمية من الدرجة الأولى مع الامتياز، وأثنت عليه لجنة الامتحان التى كان يرأسها مصلح الأزهر الشيخ محمد عبده.

ومما يعرف عن الشيخ الأحمدى أنه استقل فى دراسة الكتب العالية بنفسه، ولذلك نال شهادة العالمية صغيرا، وكان من هيئة كبار العلماء سنة ١٩٢١م وهو أصغر أعضائها سنا (٤٥ سنة).

وقد مكث مدرسا بالجامع الأحمدى إلى أواخر سنة ١٩١٣م

وقد ساعدنى الحظ بتلقى علم العروض عليه فى كتابه « المسلك الجديد » الذى ابتكره فى هذا العلم .

كما أنى درست عليه جزءا من كتاب « دلائل الاعجاز » وقد سلك فى تدريسه مسلكا غير ما ألفناه من سائر الشيوخ ، لأنه كان يطلع الطلاب على خفايا الكتاب ويوضح لهم مقاصد المؤلف ، وقد يصور لهم بالحس ما كان يرمى إليه المؤلف بالذوق .

وفى أثناء هذه المدة مرض والده ( شيخ الجامع ) فانتدب بدله وقتا قصيراً ، خرج فيه على المألوف من الإدارة : فأخذ يمر على الدروس ، ويصلح للطلاب جلستهم ، ويعلمهم كثيرا من أدب الاستماع والجلوس فى الدروس ، وينهاهم عن قرن النعال بالمحافظ أمامهم ، وسط حلقات الدروس ، ويمنع التشويش عليها ، ويحرم على الطلاب مغادرة الدرس فى أثناء إلقاء الشيخ ، ويمنع مرور العامة فى المسجد عند الدراسة ، إلى غير ذلك مما كان إرهاصا لاستعداده للتزعم والتمشيخ .

وقد توّج هذا بتأليفه كتاب « العلم والعلماء ونظام التعليم » هذا الكتاب الذى قام له الأزهر وقعد ، حتى صودرت نسخه وأحرقت فى أيامها ، ثم لم تأت سنة ١٣٢٥هـ حتى رأينا الأزهر ينظم من جديد ، على ضوء شعاع هذه النسخ المشتعلة نارها ، فحدد زمن الدراسة ، وحدّ من حرية الطالب فى الحضور والغياب

ونظمت الدروس ، ورتب كل شيء في التدريس ، بعد ما كان فيه من فوضى .

لهذا لا تعجب إذا جاء أول يناير سنة ١٩١٤ م فوجدته شيخا للجامع الأحمدى إلى اكتوبر سنة ١٩٢٣ م حين نقل شيخا لمعهد أسيوط ، ومكث هناك خمس سنوات ، أعيد بعدها شيخا للجامع ثانية إلى أن عين شيخا للجامع الأزهر فى ٩ من اكتوبر سنة ١٩٢٩م وبقى بمشيخة الأزهر إلى أبريل سنة ١٩٣٥ م .

وهو الذى اقترح على الملك فؤاد مشروع التخصص القديم سنة ١٩٣٠ م وفى سنة ١٩٣٥ اعتلت صحته فاستقال من منصبه ، وظل مريضا حتى انتقل إلى جوار ربه ، فى مايو سنة ١٩٤٤ .

وكان الشيخ الأحمدى من خلفاء المرحوم الشيخ العقاد شيخ الطريقة الشاذلية الفاسية ، اتصل به فى سنة ١٣١٨ هـ وسلك هذه الطريق ، وهدى الله به وعلى يديه كثيرا من عباده الأغنياء الضالين ، كانوا عصاة فصاروا طائعين . وكان الشيخ العقاد إلى حين وفاته سنة ١٩٣٣ م يتوسم الخير فى تلميذه النجيب ، وكثيرا ما كان يقدمه فى الحضرة الكبرى بعد صلاة الجمعة فى الجامع . ونحمد الله على أن كنا من تلاميذه فى الطريق ، وإن لم نستطع السير على منهاجه .

وكان من أخص صفاته تحمل الأذى ، والصبر على المكاره

شأنه فى ذلك شأن المقربين الأبرار ، . ولهذا رزقه الله توفيقا فى عمله ونجاحا فى حياته . وكانت تتلألأ فى وجهه أنوار العلم والصلاح والتقوى . كما تجد فى حديثه عذوبة التواضع ، وفى عبارته مايتم عن مكارم أخـــلاقه وعالى صفاته . رحمه الله رحمة واسعة .

---

## الجامع الاحمدى

١ ــ أصله ونشأته وصيته ومميزاته .

٢ ــ مكانه ووصفه .

٣ ــ مساكن الطلبة به ( الخلاوى ) .

٤ ــ دورة المياه .

٥ ــ السانية والساقية البحرية والصهاريج .

٦ ــ إضاءته قديما وحديثا .

٧ ــ المزارات التى به .

٨ ــ العبادات والأوراد والأذكار .

٩ ــ التموين والكتب والوراقون .

١٠ ــ مشارب الشاى حوله .

١١ ــ السائلون والمعتفون .

١٢ ــ لصوص المساجد .

# الجامع الأحمدى

١ — الجامع هو المسجد الكبير الذى تصلى فيه الجمعة أو يجمع فيه الناس . والأحمدى نسبة إلى أحمد ، وهو سيدى أحمد البدوى رضى الله عنه ، صاحب المقام المشهور به . وأصل نشأته «الزاوية» التى بناها سيدى عبد المتعال ، خليفته بجوار قبره سنة ٦٧٥ هـ و ١٢٧٦ م للعبادة . وكان يجتمع فيها المريدون التابعون للسيد وخليفته من بعده . وقد أخذ يتسع تبعا للزيادة المطردة فى زواره حتى صار من الجوامع الكبيرة ، واتسع صحنه لحلقات الذكر والوعظ والتدريس ، فأمه الزائرون والقاصدون من البلاد النائية ، وكانوا ينزلون بالقاعات التى أعدت لذلك على جوانب صحنه . وقد جاء فى بعض الوقفيات المؤرخة سنة ٨١٤ هـ أن الجامع كان به مجاورون . —

وقد تناولته أيدى كثير من الملوك والامراء بالعناية ، حتى وصل إلى ما هو عليه الآن ، من الفخامة والشهرة . وتوالت زيارات الملوك له وتتابعت الوقفيات عليه ، مما يدل على استمراره مدرسة للتعليم الدينى بجانب أنه مسجد جامع .

من ذلك ما كان فى عهد والى مصر المرحوم على بك الكبير سنة ١١٨١ هـ ١٧٦٩ م إذ بنى الجامع والقبة المشيدة على الضريح ،

ووقف عليهما أوقافا طائلة جمة ، وزاد فيه مساكن للطلبة وقد بلغوا ٧٠٠ طالب ، أخذ عددهم يتزايد حتى وصل إلى ٢٠٠٠ طالب كما ذكر المرحوم علي مبارك باشا فى خططه ج ١٣ .

وكذلك أمر المغفور له عباس باشا الأول سنة ١٢٦٧ هـ و١٨٥١م ببناء الجامع والقبة وملحقاتهما ورفع منارتيه الفخمتين وقد وصف لى بعض المعمرين أن « الخديو » حمل قصعة الملاط ( المونة ) على رأسه يوم وضع الحجر الأساسى فى الجامع وقال لمقدم الفعلة « سقنى ياسواق! » فنادى عليه « هات المونه ياواد! »

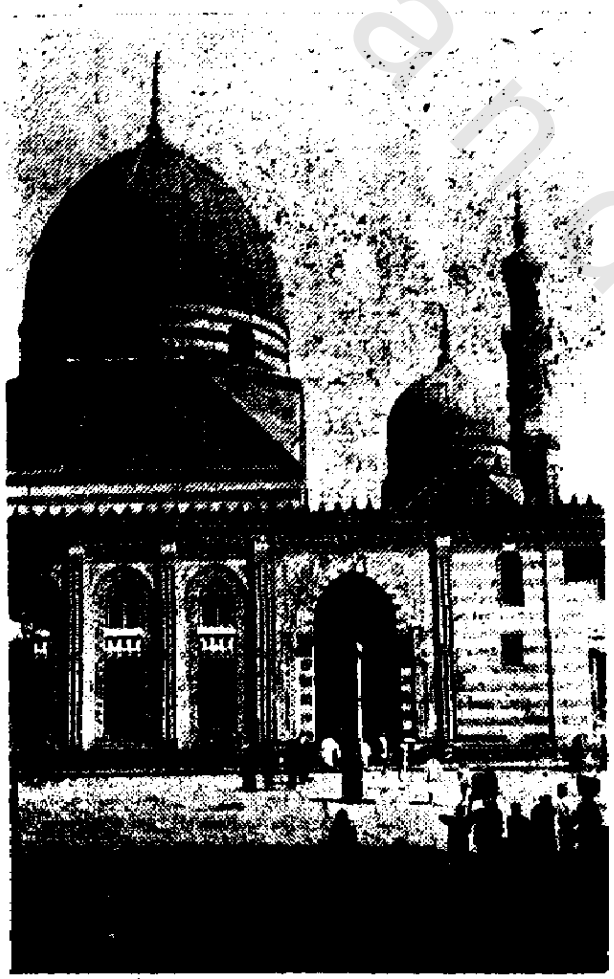

وقد استمرت فيه حركة البناء والتجديد إلى أيام الخديو اسماعيل وتمت فى عهد عباس الثانى كما يدل على ذلك ماكتب على الباب الكبير القبلى « أنشىء هذا المسجد المبارك فى عهد خديو مصر عباس باشا الأول سنة ١٢٦٧ هـ وقد تم تحسينه وتقوية مبانيه فى عهد خديو مصر عباس حلمى الثانى سنة ١٣٢٠هـ و١٩٠٢ م »

وقد طار صيت الجامع الأحمدى فى الآفاق لعدة أسباب :

**الأول** نسبته للسيد البدوى الذى يؤمه أفواج من الأقطار السحيقة والبلاد النائية لزيارة ضريحه والتبرك به .

**الثانى** : أنه (كان) من أكبر المعاهد العلمية الإسلامية بعد الأزهر ، يطلب فيه العلم آلاف من الطلاب .

**الثالث** : امتيازه بتخريج مشهورى قراء القرآن الكريم لتوافر القراء ولشدة العناية بالقرآن والقراءات فيه ، ولوجود كثير ممن يتقنون أوجه القراءات من العلماء وغيرهم ؛ ولذا سارت العبارة الآتية مسير الأمثال « ما قرآن إلا أحمدى ولا علم إلا أزهرى » . ولهذا يوجد به من المقارىء عدد كبير ، لاتخلو منها ليلة من ليالى الأسبوع :

ففى **ليلة الجمعة** : المقرأة السعيدية ( نسبة إلى سعيد باشا ) ومقرأة الشيخ العدوى ، ومقرأة سليمان افندى داود ، ومقرأة عبد الحميد بك .

وفى **ليلة السبت** : المقرأة السعيدية ، ومقرأة راتب باشا .

وفى **ليلة الأحد** : مقرأة على بك الكبير .

وفى **ليلة الاثنين** : المقرأة الأحمدية ، ومقرأة الشيخ محمد شرف .

وفى **ليلة الثلاثاء** : مقرأة الشيخ عبد العزيز يحيى .

وفى ليلة الأربعاء : المقرأة السعيدية .

وفى ليلة الخميس : مقرأة خليل أغا اللالة .

ولهذه المقارىء مشيخة ، فى أسرة الشيخ خليل سراج ، شيخ المقارئ الأسبق .

ومن المعتاد أن يجلس بعض كبار فقهاء المقارئ بعد صلاة الجمعة ، وبين العشاءين من ليالى المقارئ الشهيرة ، لاستماع القرآن من التلامذة الذين يتسابقون إلى القراءة فى هذا الوقت بقصد التجويد والمران .

٢ — والجامع الأحمدى من المساجد الفخمة ، يتوسط مدينة طنطا ، ويحيط به أربعة شوارع ، يشغل هو ومرافقه وملحقاته دون فدانين من الأرض ، وله سبعة أبواب . واحد بالضلع القبلى وثان بالشرق وثالث بالشمالى وأربعة أبواب بالغربى .

والمسجد منه نحو نصف مساحة الجامع ، وبه ٥٨ عموداً أو اسطوانة من المرمر أو الرخام الأبيض ، اجتلبت له خاصة من أوربا ، وهى مطوقة بطوقين من النحاس الأصفر ، ويتعهدونها دائما بالتنظيف والحشو من حين لآخر . وفوق هذه الأعمدة بنيت الأقواس الفخمة ، التى تحمل سقفا مزركشا بالألوان البديعة وماء الذهب . ويخلو من السقف صحن مربع فى وسطه

مبلط بالرخام ، هو والطرق الموصلة له من أبواب ( السكة الجديدة ) والميضأة وباب الرخام ، كما ترى تصميمه فى الصفحة التالية .

وكان المسجد يفرش بالحصير المنوفى ذى الشوك الحاد ، فوق بلاط معصرى ( صار الآن بلاط اسمنت ) ثم فرش بعدئذ بالحصير البلدى . وكان يكنس ظاهر الحصير يوميا ، وفى كل شهر تطوى الحصر ويكنس البلاط فيكنسح الكناسون ما تكدس تحت الحصر من بقايا فتات الخبز والبقول كالفجل والكراث ، والمخلل والكائخ ( السلاطة ) وغيرها من الفضلات والأقذار التى اعتاد المجاورون رميها تحت الحصر عقب الأكل يوميا .

وفى الجدار الشرقى من المسجد ترى المحراب البديع النفيس ، الذى يقوم عن يمينه أو يساره ذلك المنبر النادر المثال ، وهو آية من آيات الفن ومعجزة من معجزات الصناعة فى مصر بل فى العالم ، لأنه مؤلف من قطع صغيرة ضم بعضها إلى بعض بدون غراء ولا صمغ ولا مسمار واحد ، مع ضخامته وتعقيد تركيبه ، ويقال إن قطعه كلها كانت توضع فى مقطف واحد ؛ صنعه أحد النجارين المسمى « على جلط » وفى قريتنا منبر من صنع أحد تلاميذه ، غير أن قطعه كبيرة وليس بهذه النفاسة .

وجنوبى المسجد كتلة من المبانى فيها المزارات وإدارة الجامع والمكتبة ، وبعض أماكن أخرى . أما شماليه فمساكن الطلبة ثم دورة المياه ، يفصل كلا منهما باب وطرقات خاصة .

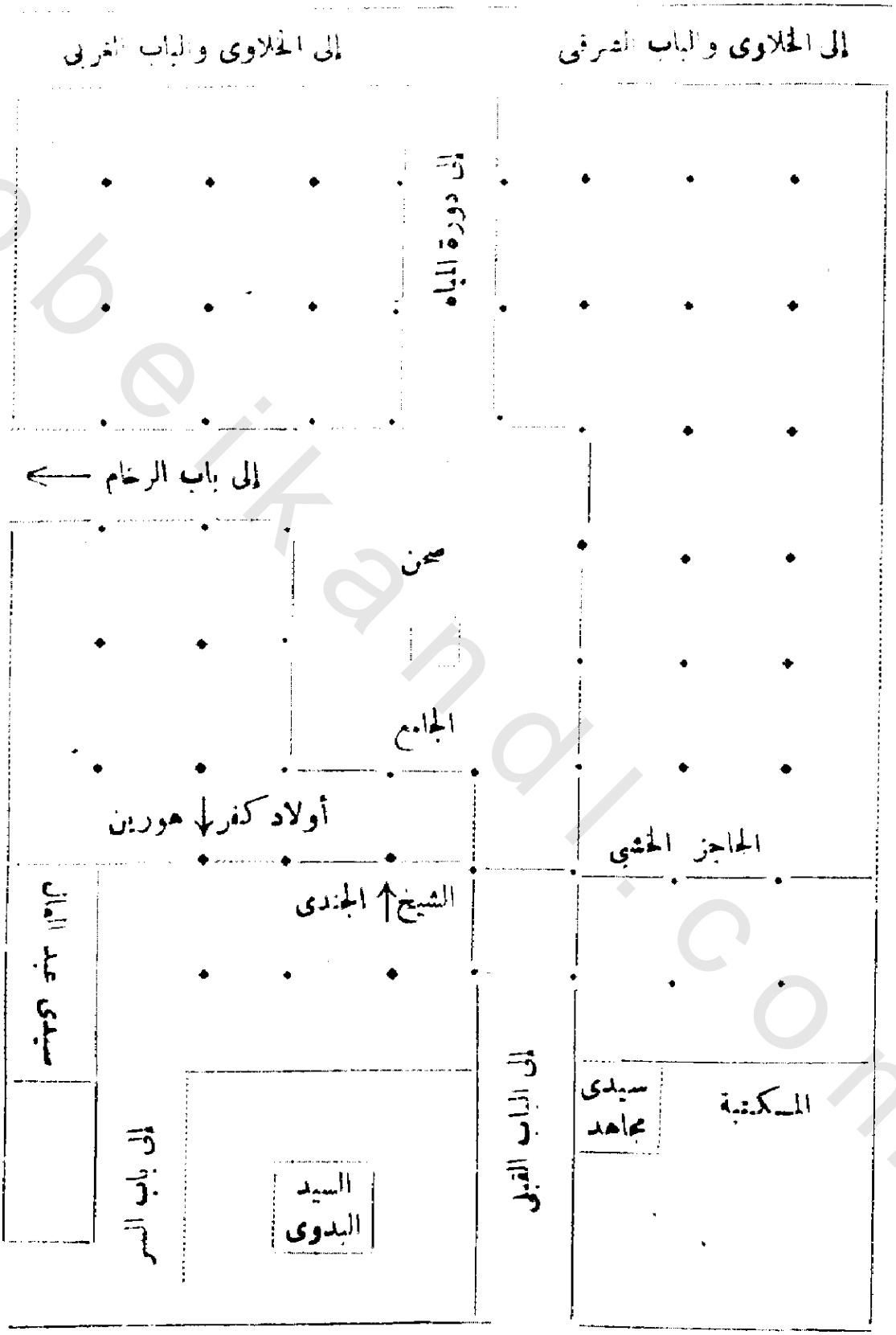


obeikandl.com

٣ — أما مساكن الطلبة فهى بين المرافق والمسجد ، فى قسمين متعادلين يميناً ويساراً ، يحتوى كل منهما طريقا عن جانبيه صف من الحجر يعرفها الطلبة « بالخلاوى » أو الخلوات كان يقطن كل خلوة منهـــا خمسة من الطلاب المتقدمين أو المجدودين المحسوبين .

وليس فى حجر الطبق الأول غير نافذة صغيرة عليا يدخل منها ضوء ضئيل لا يكاد يمحو ظلمتها ، أما حجر الطبق الثانى فأكثر ملاءمة لأن بكل حجرة نافذتين متقابلتين .

وقد عنيت بها الإدارة أخيرا فصنعت بها دككا من الخشب تتخذ صناديق للخبز والمتاع . وفى كل صف ، ست حجرات فى الطبق الأول أى ١٢ حجرة فى القسم ، أو ٢٤ فى القسمين . أما فى الطبق الثانى ففوقها مثلها مضافا إليها عشر فوق دورة المياه الصغرى ، يكون مجموعها ٦٨ حجرة (١)

فوق ٢ × ٢٢ = ٤٤ ⟨ ٦ + ٦ = ٦,١٢ + ٦ = ١٢
تحت ٢ × ١٢ = ٢٤ ⟨ ٥ + ٥ = ١٠,١٢ × ٢ = ٢٤
٢٢

٤ — هيابنا إلى دورة المياه ، ولنمر من الباب المتوسط فى المسجد

---

(١) يشغل حجرات الطبق الأعلى مكاتب « جمعية المحافظة على القرآن الكريم » أما الأسفل فخال مهجور الآن (١٩٤٢)

فنطل منه بعد طرقتين على بهو صغير مبلط بالرخام ، تتوسطه حنفية الرخام ، وهى حنفية صغيرة قلما تملأ بالماء ويتزاحم عليها المتوضئون مثل الحنفية الأخرى الكبيرة التى بعدها .

ويلاحظ فى أعلى جدارى هذه البقعة نوافذ بعض الخلوات العليا. وفى الجدار الشرقى منها محراب تقام فيه الجماعة فى الصلوات الخمس، كما تقام فى سائر الإيوانات حول تلك الحنفية ، وكذلك كانت تعقد فيه حلقات التدريس أحيانا . وقبل أن تمر من الباب الموصل لدورة المياه الحقيقية أو الحنفيات الكبيرة ، نوجه نظرك إلى هذه الأوراق التى ألصقت على مصراعى هذا الباب أو على كتفيه ! إنها إعلانات عن ضياع بعض الأشياء أو العثور على لقطة لم يطمع فيها واجدها ! اقرأ :

## اعلان

يا إخواننا يا مجاورين يا أولاد الحلال ! يا من لقى منكم محفظة فيها ملزمة من الكفراوى ومتن الأجرومية . . . فليحضرها إلى أولاد . . . بجوار عمود . . . وله من الله الأجر والثواب .

ومن قطع هذه الورقة قطعه الله من هذا المكان

## اعلان

* يا اخواننا يا مجاورين يا من ضاع له كيس فيه كتب وأوراق

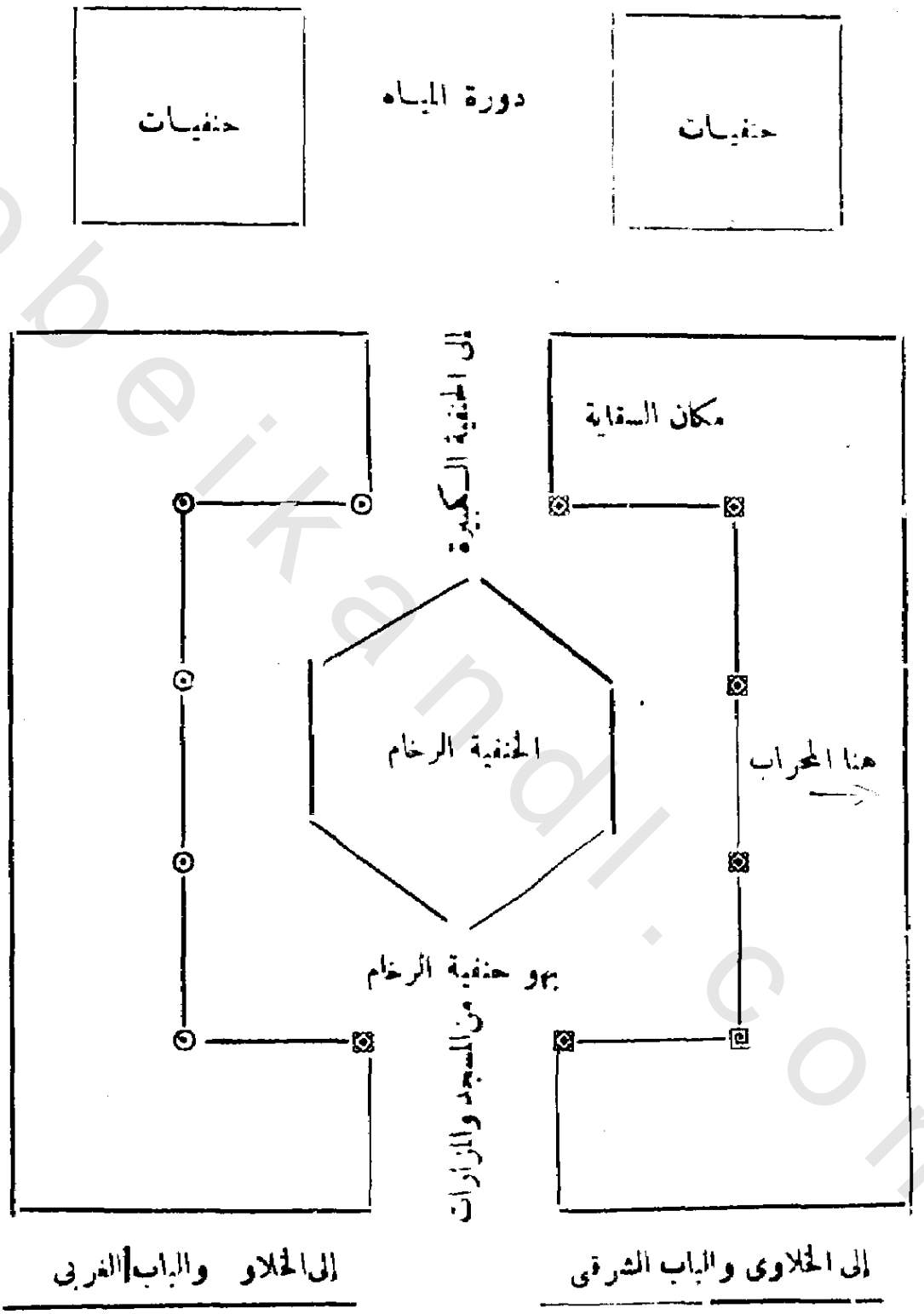
حنفيات
دورة المياه
حنفيات
مكان السقاية
إلى الحنفية الكبيرة
الحنفية الرخام
هنا المحراب
هو حنفية الرخام
من المسجد والمزارات
إلى الخلاوى والباب الشرقى
إلى الخلاو والباب الغربى

فليحضر إلى أولاد . . . ويسأل على .. ويعطى أوصاف الكيس وما فيه . ومن وصفه وعرف مافيه سلم إليه ، وعليه لنا قراءة الفاتحة فى المقام الأحمدى

قف فى هذا الباب تر أمامك متسعا عن يمينه خزان كبير أو حنفية كبيرة وعن يساره مثلها وفى كل منهما نحو ٥٠ بليلة ( بزبوزا ) ( الآن ثلاثة صفوف من الأنابيب تتصل كل أنبوبة بنحو ٢٨ حنفية أو ٨٤ واحدة فى الجميع ) ، وهذا المتسع مسور بسور من الحديد يفصل بين الطهارة والنجاسة ، عن يمينه المراحيض ، وعن يساره الحمامات أو المغاطس المهجورة .

٥ — افتح إحدى الحنفيات الآن وتذوق ماءها ! إنه عذب لذيذ الطعم لأنه من ماء شرب المدينة ، أما قبل أربعين سنة فقد كان ماؤها ملحا أجاجا ، لأنه كان يستقى من السانية المعينة ، التى أمام الباب الغربى لدورة المياه ، وتقابل الركن الشمالى الغربى من الجامع ! وقد شاهدت هذه الساقية فوجدتها بعيدة الغور عميقة جدا ، قد يبعد ماؤها عن سطح الأرض فى الصيف بنحو عشرين « مترا » . ولهذه السانية خدم وثيران تدور فيها . وليس يخفى عليك أن مثل هذه الساقية العميقة لايجرها إلا ثيران قوية ؛ ولذلك كنت ترى ثيرانها مكتنزة اللحم مفتولة العضل ، ترى عليها آثار الإكرام والنعمة ! وقد تعجب إذا أخبرت أن معظم هذه الثيران هدايا أو « نذور » نذرها أصحابها لساقية السيد بين النذور

المختلفة التى كانت ترد إلى السيد البدوى من آن لآخر ، كما سترى فى باب ( النذور ) .

وإذا أشرنا إلى هذه الساقية المعينة أو ذات البئر فلانستطيع إغفال ذكر « الساقية البحرية » ، وكانت على ترعة الجعفرية فى المنحنى الذى كان بقرب شارع « البورصة » ، ومنها كان يملأ الصهريج .

والصهريج مخزن كبير للماء تحت الأرض ، يملأ بعد صفاء ماء النيل فى شهر طوبه، ويمكث فيه إلى الصيف ، فإذا استُقى منه حينئذ كان ماؤه باردا رائقا صافيا . وكان اتخاذ الصهاريج شائعا قبل ذيوع شركات المياه وترشيحها ، وخاصة بقرب المساجد والسبُل . وقد أبطل معظمها لعدم توافر الشروط الصحية فى مائها ، وما بقى منها اتصل بأنابيب ماء الشرب المرشحة . ويبنى فوق الصهريج بناء ذو شبابيك فى أرضها أحواض وكيزان نحاسية تربط بسلاسل متينة ، يستقى بها الشارد والوارد . وقد ترى كثيرا من هذه الصهاريج والسّبل بمدينة القاهرة ، تعرفها بالمبسم البارز من جدارها . وفى طنطا غير صهريج السيد الكبير ، صهريج على بك تجاه مقام السيد البدوى ، وصهريج الست مباركة تجاه محطة السكة الحديدية . أما الصهريج الكبير فتراه قبالة « باب الرخام » غربى المسجد ( وقد زحزح عن مكانه إلى الخلف كثيرا على إثر

توسيع الشوارع والميادين حول الجامع ) ؛ وهو بناء فخم كسى بالرخام من خارجه وداخله .

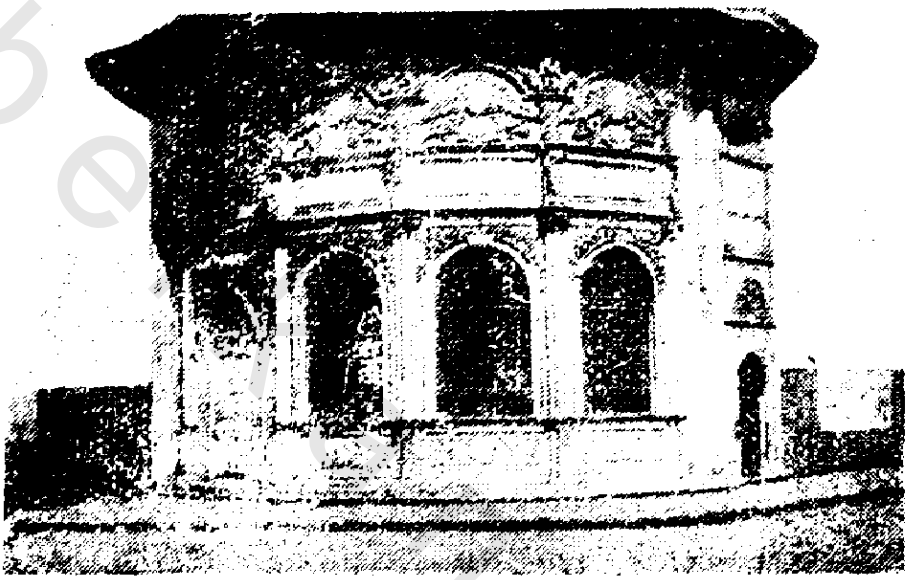

منظر خارجى للصهريج الكبير ( صهريج السيد البدوى )

٦ — خدم المسجد كثير منهم البواب والسكناس والملاحظ والمشد ، والمؤذن والسقاء ، والوقاد . ترى هذا الأخير يشتغل ضحى بجمع القناديل لتعميرها بالزيت وإصلاح فتائلها ، ثم إعادتها وتعليقها . فإذا جاء الغسق حمل مشعله فى عصا طويلة وأخذ يوقد القناديل ؛ وبعد صلاة العشاء يأتى بأنبوب من القصب ( الغاب ) طويل يطفىء به بعض القناديل تنبيها للمصلين والمجاورين إلى الانصراف . فإذا خلا المسجد أبقى بعض القناديل منيرة مبعثرة ، تضىء الطريق لمن لا يفارقون المسجد من الخدم

والمقيمين فيه . ولا تنس — على ذكر القناديل — اللغز « ف القنديلَ زيتا » وينطقونه « فى القنديلَ زيتا » للإلغاز !

اما المزارات فكانت تضاء بالثريات ( النجف ) ، وهناك لا بد للوقاد من سلم طويل يصل به إلى زجاج الثريا فينظفه ويضع فيها الشمع ؛ فإذا جاء وقت الإضاءة أضاءها بالمشعل الطويل المخصوص ، وعند الإطفاء يطفئها بعصا تنتهى بقمع من الصفيح يكبس به ذبالة الشمعة فتنطفىء لانحباس الهواء عنها . والآن ، يضاء الجامع بالكهرباء ، بعد مصابيح البترول ، فتنوعت إضاءته من قناديل ، إلى مصابيح ، وفوانيس ، إلى مشكوات فيها مصباح ، المصباح فى زجاجة كأنها كوكب درّى ، يوقد من شجرة مباركة زيتونة .

ولا شك فى أن تغيير الإضاءة تبعه تغيير فى أصناف النذور والهدايا التى كانت تنذر للسيد والأولياء ، من أصناف الشمع المختلف الجرم لإضاءته فى المزارات والجامع فى المناسبات المختلفة .

٧ — لا يؤم المسجد إنسان إلا رأى عليه واجبا أن يطوف بالمزارات التى فيه ، فيزور مقامات السيد عبد العال وسيدى مجاهد ويتبرك بقراءة الفاتحة وما يتيسر من القرآن الكريم .

فمقام السيد البدوى أكبر المزارات وأفخمها ، له بابان

أحدهما شمالى يدخل منه من فى المسجد ، والآخر غربى يدخل منه القادم من « باب السر » . وعلى ضريحه مقصورة من النحاس الأصفر بها فتحة يدخل فيها الزائرون يدهم ويضعونها فى جيوبهم. وفوقه قبة عالية يبدو منظرها بين المئذنتين وباقى القباب مثل

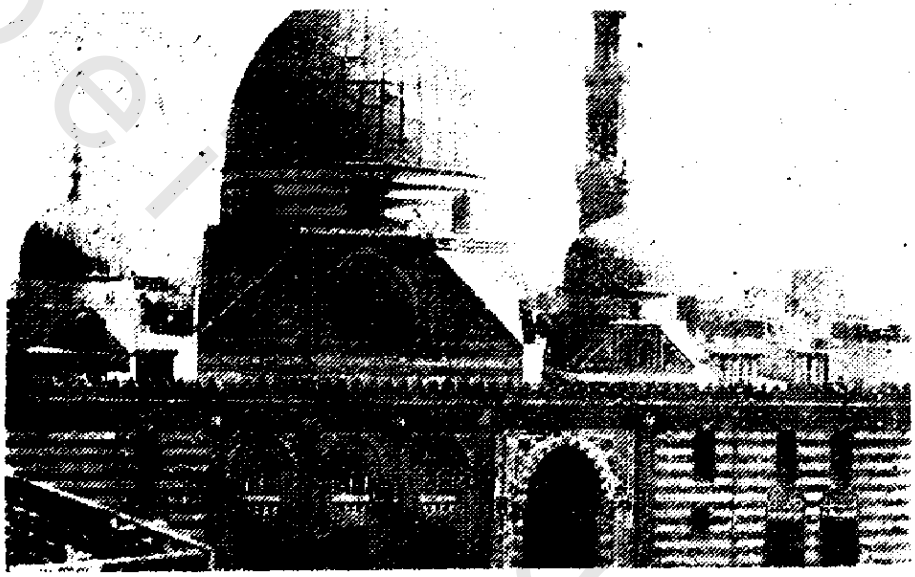

منظر الجامع من الباب القبلى وتشاهد القباب الثلاث لمزارات سيدى مجاهد والسيد وعبد العال

مسجد القلعة . وفى الركن الجنوبى الغربى من المقام حجر أسود فيه أثر قدمين وثقوب ، تمثل ما يذيعه الجاهلون من أن النبى صلى الله عليه وسلم « له فى الصخر غاصت الأقدام » وأنه كان يغزل فسقط منه المغزل فغاص هو أيضا فى هذه الصخرة . ويقال إن مثل هذا الحجر موجود فى كثير من مقامات الأولياء ويتمسح به العامة تبركا ، كما يفعل الحجاج بالحجر الأسود . ولكن الآن قد وضع عليه شبكة حديدية لمنع ذلك العمل .

وينتشر فى المقام، حول المقصورة، كثير من الزوار الطائفين قياما، والجالسين يتلون القرآن، تبركا أو طلبا لإحسان الزائرين. أما المتسولون، أو طالبوا الإحسان علنا، فهم كالجراد فى المزارات كلها، وأمامها، وحول المسجد، يتفرسون وجوه الزائرين، وقلما تخطىء فراستهم.

وقد يصطف قراء المقارئ فى المقام بعد العصر إلى المغرب ثم يعودون بعد صلاة العشاء طول الليل أو نصفه أو ثلثه، ثم ينصرفون بعد أن يأخذوا ماقسم لهم من الخبز الذى يصرف مرتبا جاريا (جراية) فوق مرتباتهم النقدية (١).

ويزدان هذا المقام بالثريات البللورية الفخمة الكبيرة، كما تنتشر الساعات الدقاقة فى جوانبه وأرجائه، ويعلو المقصورة بعض الألواح المكتوبة (اللافتات) مثل «أنا مدينة العلم وعلىّ بابها».

ولا تنس صندوق النذور على يمين الواقف أمام باب المقصورة وسترى وصفه فى الفصل التالى.

عرج بعدئذ على مقام سيدى عبد المتعال، وكان تلميذ السيد وخليفته، له بابان متجاوران. وهو أضيق كثيراً من مقام السيد، ومقصورته من الخشب المطعم بالصدف. ويمتاز هذا المقام ـ

---

(١) قد تغير نظام السهر فى المقارىء الآن.

كان - بجلوس العجائز الكفيفات الفقيرات المعتادات بجانب جداريه الغربى والبحرى: وفى جنوبه مقصورتان نفيستان، بإحداهما ضريح سيدى عبد الرحمن ( ٧٥٤ هـ ) ١٣٥٣م وبالأخرى ضريح سيدى نور الدين (٧٨٩ هـ) و١٣٨٧ م وهما أخوا سيدى عبد المتعال، وبينهما صوان فى الجدار، أثرى نفيس، أعد لحفظ الشعرة النبوية الشريفة التى أهداها بعض أعيان الترك سنة ١٣١٥هـ ١٨٩٨م على يد مقرئ شهير كان يسهر رمضان عند أحد السلاطين بالقسطنطينية. أما سيدى مجاهد فهو خليفة من خلفاء الطريقة الأحمدية، عاش فى القرن الثانى عشر، وكان المرحوم على بك الكبير اعتقاد فيه، وهو الذى أشار عليه ببناء المسجد، فأنشأ له ضريحه هذا الذى دفن فيه. ومقام سيدى مجاهد متواضع فى سعته وزخرفته وانتحائه ناحية بعيدة عن عمران الحركة فى المسجد. وعلى ضريحه مقصورة خشبيه أيضا، وجدرانه أقل زخرفة من جدران المزارات الأخرى، ويجلس أمام باب المقصورة شاب وسيم الطلعة حسن البزة، لا يتورع أن يسألك شيئا قائلا: الفاتحة!! ولست أدرى لماذا أهمل وضع صندوق النذور هنا مع وجوده فى مقام سيدى عبد المتعال؛ ولعل هذا من حسن حظ شيخه أو حارسه، إذ يتلقى النذر شخصيا مناولة!

وتشترك المزارات الثلاثة فى أنها مفروشة بالطنافس الغليظة العجمية.

٨ — قبل أن نخرج للطواف حول الجامع ، تعالى نمكث فيه يوماً وليلة ، لنشاهد ما فيه من العبادات وما يقام فيه من الصلوات ونحوها ، وأرجىء مشاهدة الدراسة لوقت آخر .

نحن الآن قبل الفجر بساعتين ، وقد آن الأوان لأن نؤم المسجد لنشاهد المتعبدين ! من أين تدخل ؟ من باب الرخام فقط لأنه هو الذى يفتح عند الأذان الأول ، أى قبل الفجر بساعتين ! ولله ليال من الشتاء ، أخطأنا فيها الوقت ، فقمنا فى الساعة الخامسة العربية ليلا ، وجئنا للجامع حتى وقفنا على هذا الباب ، ولزمناه وطرقناه ، فكان « عم أحمد عمار » أجير « سيد احمد الطور » البواب الأصيل ، يتدلل ويرفض فتح الباب ، وكنا نمكث أحيانا الساعتين على أرض رخامية فى شدة القر وسيب المطر أحيانا ، ولا يرق قلب هذا الرجل الأثرم ، فننتظر حتى يبتدىء الآذان الأول وندخل المسجد بغير تعريض بنا ولا تحليق فينا ، إلا أن يرزقنا الله بأحد المؤذنين أو أغنياء المتعبدين المعروفين لديه ، فنندس وراءه ونقتحم الباب خلسة ، فننجح أحيانا فى الدخول وتارة يمسك بتلابيبنا ، ويقذف بنا — على ضعفه — إلى خارج الباب على ذلك المقعد الرخامى ، وياليت أيامها دامت ! !

استمع ! هذا الصوت الطويل العريض ، يرن فى جوف الليل والناس نيام ، وهو يقول : عفوك ورضاك يارب ! ألا تراه

يطيل النداء ويصيح بأعلى صوته قائلا : يـــــارب ! !

ما أجمل صوته على اتساعه وعرضه ؟ ! وما أجمل النداء فى وقت السَّحَر ! وما أصدق هذا النداء ، لأنه صادر من القلب . هذا هو الشيخ « مطاوع » المؤذن وهو رجل صالح ، يحكى عن والده أنه سمع هاتفا يقول له « لبيك عبدى ! » رداً على ندائه الجميل ، يارب ! وهذا صوت آخر جميل ، على المنارة الثانية ! إنه صوت الشيخ « أحمد فايد » مؤذن حديث ، رخيم الصوت ، كان ينشد على حلقات الذكر أيام الجمع .

لنترك أصوات المؤذنين ترنّ فى أجواز الفضاء ، لتوقظ النائمين ، ولنستمع إلى المتعبدين داخل المسجد ! هؤلاء جماعة يقرءون « اللطفية » بعد فراغهم من قراءة « ورد سَحَر » . استمع إلى هذا العبد الذى يمد لام لطيف عند قولهم يالطيف يالطيف ، فكأنه يقولها يا لا .. طيف يا لا .. طيف ، وهو يحتد فى نطقها كأنه ينتزعها من قلبه ! إنه من القراء المثابرين .

ساد السكون فى المسجد ، بعد أن كان كل واحد مشغولا بتلاوة سورة أو تسبيحة ، فكفوا جميعا عن القراءة ، انتظارا لآذان الصبح . استمع إليهم يجأرون بالدعاء عندما سمعوا صوتا يقول : الصلاة ! وهو يمد اللام نحو دقيقة كاملة ! هذا هو الشيخ « سيد فايد الميقاتى » ، ساعته مضبوطة ، يأتى عند وجوب كل

صلاة من الصلوات الخمس ، ويقف على حافة صحن المسجد ، متجها صوب المئذنة الشرقية ، وينادى بصوت عال طويل : الصلاة ! فيسمعه المؤذن المنتظر فوق المنارة ، ويبتدىء بالأذان فيتبعه المؤذن الثانى .

وقد يقطع نداؤه هذا نهارا ما يكون فى المسجد من ضوضاء ألفى طالب ، فيسود السكون لحظة ثم يعود استمرار الصوت .

أما الصلوات الخمس فتقام لها جماعتان كبيرتان ، الأولى فى المحراب العام والأخرى فى محراب المقام الأحمدى ، عدا جماعات كثيرة متفرقة فى أنحاء الجامع وفى الحنفية الصغرى أو حنفية الرخام .

فرغ المصلون من العشاء ، واصطف جماعة من الناس على جانبى باب مقام السيد صفين متقابلين ، وأمامهم فوانيس بها شمع وبأيديهم كتب . أولئك هم قراء « دلائل الخيرات » وكثير منهم موظفون .

أما بعد صلاة الجمعة فإن المسجد يغص بحلقات الذكر ، وجماعات مختلفة قليلة أو كثيرة من شتى الطوائف . فهؤلاء هم البيومية أو الأحمدية بعمائمهم الحمراء ، وهؤلاء الرفاعية بعمائمهم السوداء ، وهناك بين المنبر وباب المكتبة تمتد حضرة الإخوان الشاذلية يتوسطهم الشيخ العقاد ، وأحياناً أستاذنا الشيخ محمد الأحمدى الظواهرى رضى الله عنهم جميعا .

هذه الحضرات مجتمعات أرباب الطرق، يذكرون الله قياما وقعودا بأسمائه الحسنى، فى نغمات مختلفة. وهم يتمايلون ويدورون إذا اشتد بهم الذكر، ويطربون لسماع إنشاد المنشدين. فلنتركها إلى مجتمعات المريدين والمجذوبين، أو الدراويش وهم كثير حول المسجد، ويظهرون فى داخله بعد صلاة الجمعة. ولنستمع قليلا إلى مايتغنون به من مديح وغزل صوفى!

انظر إلى هذا الشيخ الطويل ذى العمامة الكبيرة الحمراء! تأمل هذا الطوق الحديدى فى عنقه! شاهد ملبسه الواسع المعروف بالعرى! وهذه امرأة فخمة اختمرت بخمار أخضر، وتمنطقت بنطاق غليظ، وتختمت بعشرين أو ثلاثين خاتما من معادن وأجرام مختلفه! وجه نظرك إلى هذا الفتى الذى قدم مهرولا نحو المقام، وهو يصيح بأعلى صوته: مدد ياسيد على طول المدا . . . . . د، وهو يمد ما بين الدالين حتى تنتفخ أوداجه، ويكاد ينقطع نفسه!

تأمل تلك الحلقة من الناس الشواذ فى ملابسهم وأشكالهم! انظر إلى عيونهم تجد بعضها دامعا وبعضها مغمضا، وهم جميعا منصتون إلى من يتناوبون «التخمير» أو المديح والإنشاد، وقد يلفظ بعضهم باسم محمد! أو السيد! أو أبا العينين الخ لمناسبة فى الإنشاد.

قد بدأ أحدهم الإنشاد قائلا :

يا عُـرب يا للى نديتونى أدينى جيت
واقفْ على الباب لما تأمروا خشيت
وسر طيبه وزمزم والحرم والبيت !
تخلوا نفسكم معايا رحت والا جيت

فرد عليه ثان قائلا :

يا عرب يا للى تودوا الناس ودونى
هاتوا دوا من كحيل العين وادّونى
قالوا نعدك معـــانا قلت عدّونى
قالوا تصون الأمانه؟ قلت بعيونى
لما لقونى موافى العـــال والدونى
فردوا البوارق وحلفوا لم يفوتونى

ورد عليهما ثالث قائلا :

يا عرب وادى النقا هوا الهزيل ينفات
قالوا بلاش نعيره داحنا على الند هات
إن خسع الحى فينا تفزع الأموات

---

وقد أخذ آخر فى تغيير الموضوع فقال :

الشرح واحد يا واحد لما الزهور ألوان
لولا النهور عالزهور ما كان كل شىء ألوان

ولولا البحر الكبير ما كان لا ترع ولا خلجان
وادى القمر من جمالك يا نبى نزل خجلان
نزل منازل حقيقية والحجر له لان
الشمس حلفت يمينين ما تطلع من أبراجها وتبان
إن لم تسلم عليك يا صفوة الرحمن

---

وتبعه غيره فقال :

قالوا تحب مين فى الأسامى قلت م ح م د
كمن على وجنات خدود النبى ورد
الفم خاتم دهب والريق ش ه د
له جوز عيون دعج من غير كحل س و د
أنا يا ريت يا دليل الدليل يا س ى د
خدنى معك فى الركب ع ب د
ليلة وصال الحبيب النبى يكون عندى ع ى د

---

ثم صاح سادس قائلا :

السيد اللى يقول فى الكون آدينى
أنا بحر طامى ومين يقدر يعانينى
واللى بييجى على الفقرا مريدينى
يصير مطرود لا ذمه ولا دينى

---

ويختم الإنشاد سابع قائلا :

ازىَّ ما انضام ونالى فى دسوق اثنين
واحد أبا المجد والثانى أبا العينين
البحر جاوز العتبـــه وله جرفين
شوّر عليه الدسوقى انظروا راح فين

دع هؤلاء القوم ، واستمع إلى هذا الشاب المجذوب الشيخ على . . . ينشد قصيدة فى السيد البدوى :

إذا ما شئت أن تحيا وتسعد عليك بساحة البدوىَ أحمد
عليك بساحة قد حل فيها أبو العباس ذو العلم المشيد
هو البحر الذى قد فاض فضلا هو المدد الذى يُرجى ويقصد
يمد يمينـــه شرقاً وغرباً بعزم قد حكى السيف المهند
أتت أم الأسير إليه تبكى بدمع فوق خديها مبدد
وقالت يا أبا العباس ابنى أسير فى يد الكفار يكمد
تحرك أحمد البدوى جهرا ومد يمينه فأتى المقيد
وهذا قيـــده للآن باق لرائيه على التابوت يشهد
له فى الخافقين علو شأن علا فوق السماك وكل فرقد
وعبد العال صاحبه المفدى لخدمته وصحبته تجرد
فنال بلحظه أوفى مقام وصار بكل ناحية ممجد
وكم للأحمديه من مقام له فى الجو مصباح توقد
لهم فى القفر أحوال حسان وألوية غدت فى الكون تعقد

٩ — هيا بنا نتجه صوب «باب الرخام» غربى المسجد فى الميدان الذى أمامه ترى قبالته حانوت «عم حسين المخللاتى» وهو ذو نسب فى صناعته، ورثها عنه ابناه وهو أعظم مركز لتموين الطلبة بالفول والمخللات والكوامخ والطعمية وما إليها! وعلى سلم الصهريج جلس النساء وأمامهن مشنات الفجل والكراث والبصل والليمون وما قاربها، وهن يكوّن سوق الخضر للطلبة

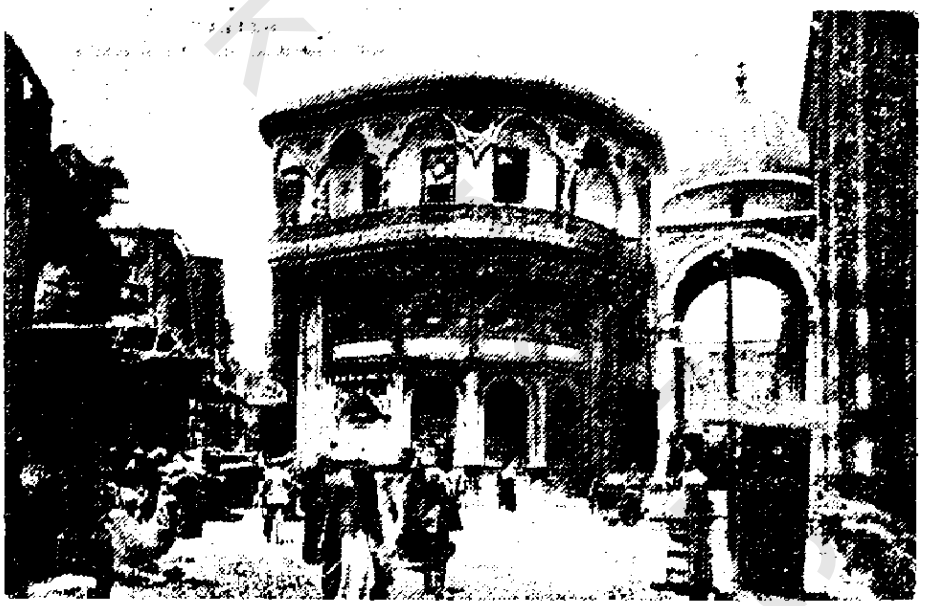

صورة تمثل باب الرخام (إلى اليمين) وبناء الصهريج من طبقين فى (الوسط) وحانوت عم حسين (إلى اليسار) وعن يمين الصهريج شارع الكتبية وعن يساره درب الأثر

وتجد أحياناً بائع الجميز والخيار على حمار أو عربة فى انتظار أعيان المجاورين!

ولنتخطّ باب مدخل الصهريج، وننظر عن يسارنا، فنجد صفا

من حوانيت الوراقين ! أليس فى الكتب غذاء روحى ، فتكون بجانب الغذاء الجسمانى ؟ ! تأمل قليلا قبضة الرسائل أو الكتب الصغيرة بين يدى « الشيخ مصطفى تاج » رحمه الله ! إنه يفرز هذه الحزمة واحدة واحدة ليستخرج منها متن الآجرومية لطالب واقف أمامه ! فإذا لم يجده فيها أعادها إلى الرف وقبض قبضة أخرى وهكذا ، حتى يعثر عليه ! ثم يطلب فلسين ثمناً له ، فيساومه المجاور على فلس واحد ، فيضرع إليه الشيخ مصطفى بعبارات عذبة إن كان مسروراً ، أو ينتهره إن كانت قضيته مع زوجته لم تأت وفق مرامه ! تنتهى المعركة إما بدفع اثنين أو برد الكتاب إليه وانتقال الطالب إلى حانوت آخر .

كانت رفوف هذا الدكان ملآى بأكداس الكتب ، وكان غاصاً دائماً بالمشترين ، لأن أثمانه رخيصة وأخلاق صاحبه هينة ، ودكانه أول الدكاكين ، وعنده من الكتب المتداولة طلبة كل طالب ، مع أن مساحة الدكان لا تتجاوز ثلاثة أذرع فى مثلها ؟ !

تخطّ هذا الدكان إلى مجاوره دكان الشيخ «الشبينى» هو شيخ عالم يلبس الفرجية ويحترف الوراقة ، تر عنده قليلا من الكتب . إنه الآن يسب الطالب الذى رفض أن يشترى منه «الكفراوى» بثلاثة « تعريفات » ؛ وهو لذلك سيء السمعة عند الطلبة فلا

يشترى منه إلا مضطر أو غنى ، أو من جهل أخلاقه وأخلاق غيره من الكتيبة ! دعك من هذه الدكاكين المتشابهة ، وقف أمام هذه المكتبة الفاخرة ! إنها واسعة نضدت بالفرش والأرائك ، وصُفَّت كتبها فى رفوف مغطاة بالزجاج . تأمل هذا الشيخ الطويل اللطيف الهادئ ! ذلك هو السيد عبد اللطيف الكتبى ! إنه يشبه العلماء ، ولكنه ليس بعالم ! إنه جالس إلى مكتبه يجالس جماعة من العلماء ، ويقدم لبعض المشترين كتبا قيّمة ! هذا هو طالب صغير قد اقتحم المكان غير هياب ولا وجل ، يسأله عن كتاب « الشيخ خالد » فيحدد له ثمنه قبل أن يخرجه ، حتى إذا رضى بالثمن فتح باب الزجاج المنزلق فى مجراه على مهل ، وناوله الكتاب بعد دفع ثمنه وانصرف .

انظر وأنت واقف مكانك إلى دكانى « التجليد » المجاورَين ، وتأمل هذا الشاب الصغير النظيف ، الذى صفف شعره وصقله ، إنه شاب يصنع « المجلدات الأفرنكية » بثلاثة قروش للمجلد الواحد ، أما جاره فيصنع المجلود الورقية بخمسة أو ستة فلوس . ألق نظرة على الدكان المجاور الذى وقف فيه ذلك الرجل « الاسكندرانى » ! إنه يبيع الزيتون و « السردين » وأنواع الجبن والحلوى وما شاكلها ، وهو جزء متمم لتموين الطلبة بالغذاء ، ولكن تأمل ذلك الدكان الآخر بجانبه وهو دكان

«عثمان» بائع «الفول والسلاطة». إنه مزدحم بالمشترين وبأيديهم الأطباق والسلاطين، ولكن دكان الاسكندرانى ليس فيه إلا شخص واحد أنيق! إنه لا يشترى منه إلا الطلبة الأغنياء، «الأرستقراطيون» الذين يستطيعون ويستطيبون أكل بضاعته!

١٠ — إذا جئت إلى باب الميضأة الشمالى الوحيد بعد صلاة العشاة، حين يغلق هذا الباب، وجدت كل الحوانيت التى فى الشارع أغلقت، ما عدا اثنين أو ثلاثة منها، صفت على رفوفها أباريق وأكواب، وعلى منضدة أو «نصبة» أباريق نحاسية صفراء، من ذات الوقود الداخلى المعروفة (بالصنوار أو الصنافور)؛ وتلك هى دكاكين صناعة الشاى! هذا عثمان الخادم جاء بسراويلة الواسعة وقرقله المطرز، المصنوع من الجوخ، وأخذ يصف الكراسى والموائد على جانبى الشارع أمام أبواب الحوانيت المغلقة، حتى ازدحم باب الميضأة فتخطاه إلى شارع الهنود.

اسمعه ينادى بنغمة خاصة (أفاك ملان تلاته) أى أبريق صغير معه ثلاثة أكواب ثم (بكرج ملان أربعة) أى أبريق كبير معه أربعة أكواب. استمع إلى هذا الجارس الصغير! إنه يطلب الخادم ليحمل ما أعده العامل من الشاى المطلوب لثلاثة أو أربعة!

بعد ساعة ترى الشارع قد اكتظ بالشاربين الذين وفدوا للتمتع بجلسة فى « مشارب الشاى » الفاخرة عند باب الميضأة ! وقد يمتع الطالب نفسه بالجلوس هنا مرة فى الأسبوع أو الشهر ، يدفع فى الجلسة نصف قرش ، يدخره لهذه التفكهة أو «الفشخرة» يحاكى بها التجار والأغنياء . إذ قلما يجرؤ طالب على الجلوس فى مشارب الشاى أو القهوة إلا إذا كان من الكبار الذين يهوون بعض هذه المشروبات أو يريدون تدخين « النارجيلة » ولا تنس أن شرب الشاى لم يكن مألوفا مثل اليوم !

١١ — سر بجانبى قليلا كى أحدثك حديثا من مثل ما يتحدث به السائحون ! هلم إلىّ ولندخل الجامع من الباب القبلى الوحيد ، ولنتزى بزى المسافرين القادمين من محط السكة الحديدية ! لا تكاد تصل إلى آخر شارع السكة الجديدة حتى يطالعك جيش من السائلين ، وأستحى أن أدعوهم « متسولين » تأدبا مع صاحب المقام الذى نحن أمامه .

هذا الجيش من الرجال والنساء والأطفال والشيوخ ، قد يتعلق الواحد منهم بذراعك متوسلا إليك بأحسن الدعوات المناسبة ( ربنا يخلى لك ابنك ) ( ربنا يعوض عليك ) ( الله ينجح مقاصدك ) ! والويل لك إن أخطأت ونفحت أحدهم بفلس أو لقمة خبز أو قرصة ، فإنك تثطوق فى الحال بشرذمة قوية ،

ويتعذر عليك السير فى طريقك ، وقد ينضم إليهم سقاء أو أكثر عل ظهره إبريق أو قربة ، وهو ينادى « سبيل لله يا عطشان ! » يطلب إليك قرشا « ليسبّل » لك ما على ظهره أى يسقيه الناس بلا ثمن ! وإذا كنت الآن لا تدرك قيمة « شربة الماء » لكثرة المياه النقية ووفرتها وسهولة الحصول عليها ، فتصور ذلك أيام كان الماء يباع فى الشوارع والحارات ! هؤلاء السائلون والسقاءون يطرّزهم أناس مبصرون أو غير مبصرين ، وقفوا يرتلون الأناشيد ذات المسحة الدينية ، أو جلسوا على « مكسلة » الباب يقرءون القرآن ، أو تربع أحدهم ويده فى حجره تشير إلى طلب الإحسان ، أو وقف ساكتا جامداً كالتمثال ، وقد مد يده يطلب الرزق الحلال ، فيستدر عطفك بمنظره هذا كى تسقط فى يده فلسا ، فإذا أحس به أدخل يده فى جيبه بسرعة ، وحرك شفتيه بدعوات مختارة . فإذا اقتحمت باب المسجد قابلك رجل نشيط ( أو عدة رجال ) وسار بجانبك يسألك « العادة » ويدعو لك بما يراه مناسبا ، أو يطلب قراءة يس ، أو سورة لك فى المقام ، حتى تدخل المقام ، فترى غيره وغيرهما من سائل وسقاء ، حتى ينقذك جلوسك فى الضريح ، أو التجاؤك إلى جماعة من المجاورين فيؤمن بقسوة قلبك ويبلغ منه اليأس منك منتهاه ، فيقفل راجعا ليصيد غيرك من الزوار الذين لا ينقطع سيلهم طول النهار ،

ويزداد طوفانهم وقت وصول القطارات وحط الرحال . وطالما نبه البواب والخادم بالمسجد أو المرافق رجلا فلاحا بالمقرعة على كتفه ، وهو يتوضأ أو يزور أو يطوف بالمزارات قائلا له : « العادة ! » .

وليست هذه المناظرة خاصة بالسيد البدوى ، فإن مساجد آل البيت وكثير من الأولياء قلما تخلو من أمثال ذلك برغم قانون « منع التسول » الآن .

وطالما طاردنى زميل لى ( فى الحضور ) ليست عيناه سواء ، عند زيارتى سيدى عبد المتعال ، ولم يخلصنى منه إلا تحيتى له « كيف حالك ياعم الشيخ حسن ! » .

١٢ — دعنى أحدثك حديثا طريفا ، ترددت كثيراً فى الإدلاء به إليك ، ولكن لايسعنى إلا أن أختم به القول فى الجامع الأحمدى ! ذلك هو حديث « لصوص المساجد » .

الجامع الأحمدى ، ككل المساجد فى المدن ، يؤمه كثير من المصلين عدا طلبة العلم فيه . وهم جميعا يخلعون نعالهم إذا دخلوه ، كما يخلعون أرديتهم وبعض ملابسهم أحيانا وهم يتوضئون أو يصلون ، وقد يشتغلون عنها بالتوضوء والصلاة أو المطالعة ، فتحين الفرصة للصوص الذين يتخذون المساجد مقرا لهم ، وهم فى حيلهم بارعون .

هذا الطالب « عبد الرحمن موسى » قد اشترى حذاء جديدا ووضعه بجانبه على عادة المجاورين . مر عليه رجل صعيدى فوضع بجانبه حذاءه القديم ، وأوصاه بأن يرعاه حتى يزور . التفت الطالب بعد قليل فلم يجد بجانبه غير النعل القديم الذى أودعه الرجل أياه .

وقبيل صلاة الفجر عند الحنفيات شاهدنا رجلا يقلب كفيه عجبا ! أمسك فى يده بسترة قديمة ( چاكته ) وقد انفجر ضاحكا وهو يقول : الحمد لله ! فسألناه عن حاله ، فأخبرنا أنه خرج من المنزل مهموما ولجأ إلى بيت الله ، بعد أن أخذ عباءته الجديدة على كتفيه ، ثم جلس يتوضأ فوضعها على كرسى حنفية أخرى بجانبه . قال : وكلما مررت بالماء على وجهى نظرت لأتحقق من وجودها ، فلما فرغت من الوضوء مددت إليها يدى ، فإذا بها قد قصرت ، وكشت ، حتى صارت إلى هذه السترة القديمة . وإنى أحمد الله إذ أزال هذا الفصل ما ران على قلبى من الهم ! ذلك لأن الليل وطرفيه خير فرصة للصوص المساجد .

نحن الآن فى درس الشيخ الوكيل بعد المغرب وكان مقودى قد سلم الى حذاءه الجديد كما هى العادة ، فوضعت حذاءينا بجوار العمود . وبعد الفراغ من الدرس تفقدنا الحذاءين فلم نجد ذلك الحذاء الجديد . وكانت مشاجرة تلقيت فيها من الشتم والسباب

مالم أكن أستحقه . نحن مشغولون فى الدرس ، فجاء هذا اللص ، وأظنه كان يراقبنا ، وسرق الحذاء .

ولست أنسى ليلة بتُّها فى المسجد ، كما كان يحصل من بعض الطلبة ، فقمت من النوم فوجدت جيب الصديرى مشروطا وحذائى ضائعا. توجهت إلى « تل الحدادين » حيث تباع الأحذية القديمة أو المستعملة المعروفة بالتغييرة ، فعثرت على « مركوبى » هذا بعينه . ولكنى لم أحكم الخطة التى رسمتها لاسترداده عن يد الشرطة ، فضاع منى ثانية ، فاشتد أسفى لضياعه مرتين ، مرة فى النوم وأخرى فى اليقظة ، بعد أن ترك حسرة فى قلبى ، وإفلاسا فى جيبى .

هذا ، ولا تسل عن اللص الذى يضبط فى الجامع متلبسا بالسرقة ، فإنه قد يهلك من الضرب قبل أن يساق إلى الشرطة ، وسبحان الرزاق !

# السيد أحمد البدوى

٥٩٦ هـ — ٦٧٥ هـ

١١٩٩ م — ١٢٧٦ م

١ — هو سيدى احمد بن على بن ابراهيم . ويلقب « بالسيد » لمنزلته ومكانته من بيت النبوة ، و « بشيخ العرب » لجوده وكرمه ، و « بالبدوى » لزيه وتلثمه على عادة بدو أفريقية . وكنيته « أبو الفتيان » و « أبو الفرج » أو « أبو فراج » لما نسب له من تفريج الكروب والشدة على يديه . ويدعوه الصوفية « الصامت » و « القطب » ويعتبرونه أحد الأقطاب الأربعة ، سيدى عبد القادر الجيلانى وسيدى أحمد الرفاعى وسيدى ابراهيم الدسوقى .

٢ — ولد بمدينة فاس ، لأن أسرته هاجرت إلى المغرب عقب فتن الحجاج ، حين أكثر القتل فى الشرفاء ، ثم رجع به والده إلى مكة وهو صغير سنة ٦٠٣ هـ ١٢٠٦ م حيث توفى والده سنة ٦٢٧ هـ ١٢٢٩ م ودفن بالمعلاة .

٣ — حفظ القرآن الكريم ، وتلقى العلوم العربية والدينية على مذهب الشافعى ؛ ولم يكد يتم حياته العلمية حتى عكف على التعبد فى جبل أبى قبيس بعيداً عن العالم ، فكان يمضى كثيراً من

وقته متخلصاً من ظلمات المادة ، ناظراً لما وراءها ، متطلعاً للشهود الإلهى . ومع أنه كان فى ريعان الشباب ، شغلته الروحانيات عن الشهوات فامتنع عن الزواج ، وانتصر على « فاطمة بنت برى » وكانت امرأة ذات جمال بديع ، ولها حال عظيم ، إذ كانت تسلب الرجال أحوالهم ، فسلبها حالها ، وتابت على يديه ، وصارت لا تتعرض لأحد بعد ذلك .

٤ — ويقال إنه رأى فى منامه مايدعوه إلى الرحلة والسياحة ، فرحل مع أخيه الأكبر حسن سنة ٦٣٣ هـ ١٢٣٥م إلى العراق ، حيث كان الناس يقدسون السيدين أحمد الرفاعى المتوفى سنة ٥٧٠ هـ ١١٧٤ م وعبد القادر الجيلانى المتوفى سنة ٥٦١ هـ ١١٦٦ م . ثم طاف كثيراً من البلدان الإسلامية ، وزار كثيراً من قبور الأولياء ، حتى هبط مصر واستقر بطنطا فى ربيع الأول سنة ٦٣٧هـ اكتوبر سنة ١٢٣٩ م بعد أن تركت زيارة الربانيين والأولياء فى نفسه أثراً أتم عليه الفتح الإلهى والفيض الربانى .

٥ — جاء السيد إلى طنطا ( أو طندتا ، طنتدا ) فى زى العرب ، ونزل على واحد من أهلها ، وآثر أن يعيش فوق سطح البيت شاخصاً ببصره إلى السماء ، منصرفاً إلى الله ، لاهياً عن الكون وما فيه . وكان كثير الصيام قليل الكلام ، يقرأ القرآن من المساء إلى الصباح . ولم يلبث أن طار صيته فى الآفاق ،

فشرّق ذكره وغرّب ، حتى هرع الناس إليه ، وتوافدوا عليه . فكثر أتباعه ومريدوه ، وهدى الله على يديه كثيراً من خلقه .

ولما كان تلاميذه قد اعتادوا المكث معه فوق « السطح » سموا بعد ذلك « أصحاب السطح » أو « السطوحية » . وأتباعه يعرفون « بالأحمدية » وشارتهم العمامة الحمراء . والجماعة « البيومية » و « الشناوية » و « أولاد نوح » و « الشعيبية » فروع للأحمدية . وكان السيد يلبس عمامة اعتاد ألا يخلعها للغسيل حتى تبلى . وقد احتفظ خليفته بطرف من عمامة له واتخذها شعاراً ، ويقال : إن العمامة التى يلبسها الخليفة فى « المولد » هى عمامة الشيخ بيده . وكان يلبس أيضاً « بشتاً » من الصوف الأحمر ، ويظن أنه من لباس سيدى عبد المتعال .

٦ — ويقال إن شهرة السيد البدوى بطنطا قد علت على كل من كان فيها من الأولياء ، فهجرها بعضهم مثل سيدى « حسن الصائغ » إذ خرج إلى « إخنا » قائلا : ما بقى لنا إقامة ، صاحب البلاد قد جاءها ، وضريحه هناك مشهور يزار . أما « سيدى سالم » المغربى فقد سلم للسيد ولم يتعرض له فأقره ، وقبره فى طنطا مشهور بدرب الأثر .

ومن خيرة مريديه الشيخ محمد المسمى « قمر الدولة » وهو لم يصحب السيد زمانا ، وإنما يقال : إنه شرب بطيخة تقايأ فيها

السيد ، فقال له : أنت قمر دولة أصحابى ! فاغتاظ من ذلك سيدى عبد العال وأصحابه وأرادوا الفتك به ، فدخل من البئر عند كوم « تربة النفاضة » وخرج من البئر التى بناحية نفيا . وكان « قمر الدولة » من أجناد السلطان محمد بن قلاوون ، وعمامته وثوبه وقوسه وجعبته وسيفه ، معلقات فى ضريحه بنفيا .

وقد عاش السيد فى طنطا كذلك إحدى وأربعين سنة ، توفى بعدها فى ١٢ من ربيع الأول سنة ٦٧٥ هـ ( أغسطس ١٢٧٦م ) بعد أن استخلف بعده « عبد العال » الذى لازمه أربعين عاما منذ طفولته ، وحمل آثاره ، وهى « البشت » الأحمر ، ولثامه ، وعلمه الأحمر ، وابتنى خلوة على قبره ، صارت على مر الأيام مسجدا كبيرا ، هى الجامع الأحمدى .

ويظهر أن « عبد المتعال » كان صارماً مع أتباعه ، ورتب العشائر ، وتوفى ٧٣٣ هـ ١٣٣٣ م

٧ — ويقال إنه لما قدم السيد من العراق ، خرج معاصره الملك الظاهر بيبرس أبو الفتوحات هو وعسكره من مصر ، وتلقوه وأكرموه غاية الإكرام . ويقال إنه كان يقدسه وإنه قبل قدميه . وإذا صح هذا وما يماثله من الأخبار — كان دعاية سياسية .

وكان السلطان قايتباى كثير الإعجاب بالسيد ، وقد زار قبره.

سنة ٨٨٨ هـ ١٤٨٣ م ووسع مقامه فيما بعد . وكان خلفاء السيد البدوى يسيرون فى المواكب الدينية ، أيام سلاطين المماليك ، جنبا إلى جنب مع كبار علماء الدين فى الدولة . أما فى عهد الحكم العثمانى فالظاهر أن مظاهر الاحتفال به لم تكن تتفق وأنظمة الأتراك السياسية الصارمة . ولكن ذلك لم يحل دون تقديس أهل مصر له . فعناية المرحومين على بك الكبير وعباس الأول بأبنية الجامع والقبة ، ومقرأة سعيد باشا وزيارات أحفاد محمد على له ( اسماعيل باشا وعباس الثانى والسلطان حسين وفؤاد والملك فاروق الأول ) خير شاهد على ذلك .

٨ — هذه خلاصة عدة مراجع ، ننشرها مع شيء من التحفظ والتأدب والتعقل ، وقد أحاط الناس والمؤلفون سيرة السيد — شأن كل من له شأن فى العالم — بالأساطير والخرافات من مناح عدة ، حتى إن الشيخ الشعرانى كتب عنه فصلا يفيض بالتبجيل والتقديس . قال فى الطبقات : شاهدت بعينى رأسى سنة ٩٤٥ هـ ١٥٣٨ م أسيراً على منارة سيدى عبد العال رضى الله عنه ، مغلولا مقيداً ، وهو مخبط العقل . فسألته عن ذلك فقال « بينا أنا فى بلاد الإفرنج آخر الليل ، توجهت إلى سيدى أحمد ، فإذا أنا به وأخذنى وطار بى فى الهواء فوضعنى ههنا » . فمكث يومين ورأسه دائر عليه من شدة الخطفة . اهـ ومن هنا جاءت الكرامة المشهورة

بين العوام ، وهى أنه جاء بالأسرى من بلاد الإفرنج .

ومن الحكايات الملفقة ما يروى : أنكر بعضهم اختلاط الرجال والنساء فى المولد ، فقال السيد «وذلك واقع فى الطواف ولم يمنع منه أحد» ثم قال « وعزة ربى ! ما عصى أحد فى مولدى إلا تاب وحسنت توبته ! اه .فهل كان ذلك فى حياته ؟ وهل كان المولد يقام قبل موته ؟ وكيف تكلم ؟ هذا ومما لا شك فيه أن التوسل به وبغيره من الأولياء ، عناصر مصرية قديمة .

٩ — ومما يجدر ذكره أن هناك أضرحة تحمل اسم « السيد البدوى » فى بلاد متفرقة ،من ذلك واحد بين « ترب الصحابة » بقرب أسوان ، وثان فى طرابلس الشام ، وثالث بالقرب من غزة ! وهذه الملاحظة نجدها فى كثير من الأولياء ، ومن أشهرهم من يسمى «سيدى الأربعين».

ومما نسب للسيد البدوى ( ولعله ممن يتمثل به !)

دعنى لقد ملك الغرام أعنتى ... لكننى خضت البحار بهمتى
أصبحت فى حاناتها متجرداً ... بين الصفا أسعى وبين المروة
نشوان ما بين الدنان مهرولا ... الحب يسقينى ودنى كعبتى
لم يشرب العشاق من بحر الهوى ... إلا بقية نقطة من طينتى
سكروا بها فتهتكوا وتصببوا ... وأنا طويت الحب تحت طويتى
فقرأت من توراة موسى تسعة ... تليت على موسى لها لم يثبت

وقرأت من إنجيل عيسى عشرة ... تليت على عيسى فزادت رفعتى
وقرأت من نهج الغرام مسائلا ... وأتيت فيها من شواهد فطنتى
وقرأته وفهمته وشرحته ... وجعلت فيه من شواهد حكمتى
وبدايتى فى ذاك كتمان الهوى ... من بعد ما أفنى الغرام بقيتى
أنا بلبل الأفراح صاحب أنسها ... كم بلبلت فى حالتى من فتية
أنا صاحب الناموس سلطان الهوى ... أنا فارس الأنجاد حامى مكة
أنا أحمد البدوى غوث لاخفا ... أنا كل شان البلاد رعيتى
ثم الصلاة على النبى وآله ... والصحب ثم التابعين وعترة
وكذا السلام مضاعفا عدا الحصى ... والرمل، ما سار الحجيج لطيبة

---

أنا الملثم سل عنى وعن همى ... ينبيك عزمى بما قد قلته بفمى
قد كنت طفلا صغيرا نلت منزلة ... وهمتى قد علت من سالف القدم
أنا السطوحى واسمى أحمد البدوى ... فحل الرجال إمام القوم فى الحرم
لك الهنا يا مريدى لاتخف أبداً ... واشطح بذكرى بين البان والعلم
إذا دعانى مريدى وهو فى لجج ... من البحار نجا من صولة العدم

---

فى كتاب مناقب السيد البدوى المسماة بالجواهر السنية والكرامات الأحمدية للسيد عبد الصمد — خاتمة تتضمن القصائد التى قيلت فيه، أو نسبت اليه، مرتبة على حروف المعجم، وعددها نحو ستين قصيدة.

# الموالد

نرى الآن فى مدينة طنطا حركة غير مألوفة ، فى الشوارع المحيطة بالجامع الأحمدى أو قريبا منه خاصة ، فكبار التجار يختزنون بضائع جديدة كثيرة ، والحوانيت الكبيرة يتولد منها حوانيت صغيرة مؤقتة ، وتتبدل حوانيت بأخرى ، وجميع التجار والصناع والعمال فرحون مستبشرون ، كأنما يرقبون خيراً ويستقبلون موسما . لماذا كان هذا ؟ !

أنظر إلى هذا الرجل المنادى ، الماشى فى وسط الطريق ، وقد حمل فى يده عصا طويلة ، علق عليها ورقة رسمية مختومة بخاتم أميرى ! اسمع ! قد وقف أمام « وكالة » الحاج حسن بدوى الفطاطرى ، وأخذ يتلو كلاما أشبه بالخطبة ، فابتدأ باسم الله وحمده والصلاة على نبيه ، ثم ترضى عن آل البيت وكثير من الأولياء ، وأعلن القرار الصادر برسم مولد السيد البدوى فى تاريخ . . . . ! ها هو ذا الحاج حسن قد نفحه بقبضة من الدراهم مبتهجا كلاهما ، قائلا : كل عام وأنتم بخير ! وهكذا يستمر هذا المنادى فى طريقه ، وحوله شرذمة من صغار الخلق وكبارهم .

دعه يمر فى الشوارع ليرتزق من إعلانه السارّ ، وتعالى معى إلى الجهات الخالية بقرب المستشفى الأميرى والمدرسة الابتدائية . ثم انظر تر هذه الأرجاء الشاسعة قد فرشت بحب أصفر! ذلك هو الحمص الذى ينشر فى الشمس قبيل المولد لحمله إلى المقالى «وجوهرته» فيها ، والحمص هو السلعة التى لا يفلت من حملها زائر من زوار السيد فى المولد ، حتى إن المثل « رجع من المولد بلا حمص » صار يضرب لمن لا يحصل من عمله على نتيجة، فيبوء بخفى حنين !

إذا مررت بشارع السكة الجديدة والشوارع المحيطة بالجامع ، رأيت حوانيت الحمص المتلاصقة وبينها « المقالى » الكثيرة على مسافات قريبة ! هيا بنا إلى « الملقة » لنشاهد المهندسين مشغولين فى مسح الأرض وهندستها، ورسم الطرق والشوارع فيها ! ههنا تنصب مئات الخيام والسرادقات التى ينزل فيها رواد المولد ! وهؤلاء الفلاحون جادون فى تقليع الذرة قبل بدو صلاحها ! إنهم قد آجروا أرضهم « للموالدية » لينصبوا فيها خيامهم ، وقد حصلوا من إيجار الأرض فى أسبوع المولد أضعاف الإيجار السنوى ، ولذلك يتركون زرعهم عن طيب خاطر ! وإذا قدر لك الحضور إلى المولد وجدت مساحة واسعة تبلغ نحو ألف فدان قد غطيت بالخيام والسرادقات التى تصل إلى قرية « سيجر » !

أما نحن المجاورين فمسرورون للمسامحة فى المولد ثلاثة أسابيع

أو أربعة ، إذ يشغل المسجد بالزائرين وأصحاب « العادات » ممن لا يملكون خيمة أو لا ينصبون سرادقا فى ساحة المولد ، فضلا عن الزيارات أو « الموالد الصغيرة » التى نشهدها قبل المولد يوم الأربعاء من كل أسبوع . كانت خمس زيارات تقام فى خمسة أسابيع قبل مولد السيد ، وهى كما يأتى :

١ — زيارة سيدى خلف بميت حبيش البحرية .

٢ — زيارة قمر الدولة بنفيا .

٣ — زيارة سيدى حسن الصانع بإخنا .

٤ — زيارة سيدى عبد المجيد سالم بفيشا الصغرى أوفيشا المنارة .

٥ — زيارة سيدى عبد الوهاب الجوهرى بمحلة الجوهرية.

فتعال بنا إلى قنطرة سمنود لنمتطى مركباً فى ترعة الجعفرية إلى قرية نفيا حيث تقام زيارة سيدى « قمر الدولة » ، وقد علمت أنه شارب قىء السيد ، وأسطورة هربه فى البئر من كوم « تربة النفاضة» إلى البئر فى نفيا . لا تنس أن تحتفظ معك بفلس أجرة « المركب» إذا كثرت السفن ؛ أما إذا قلت فقد يضاعف الأجر . ها نحن أولاء بنفيا نرى سوقاً كبيراً ، يزيد عليه ماهو معروف فى المولد من الخيام المعمورة بالأذكار والصلوات . وغير ذلك ترى المأكولات والمشروبات ( المباحة طبعاً ) حتى « البوظة »

التى احتسينا منها قليلا فلم أر فيها ما يحببها إلىّ . وإذا طفت بالمولد وجدت المقاهى المتنقلة ، وفيها الغناء والرقص والطرب ونحوها ، وكذلك « الحاوى » وبائعو الطبل والمزامير والصفارات والشخاشيخ وغيرها ؛ ولا تنس الواشمين بصورهم الجذابة ، وبائعى المأكولات والحلوى وغيرها . هذه صورة مصغرة لكل من هذه الزيارات ، بل لعل نفيا فى زيارة « قمر الدولة » كانت أوسع وأكبر وأكثر من غيرها .

كانت فرصة يتمتع فيها المجاورن كل أربعاء بمولد أو زيارة تجعلهم يزهدون فى حضور مولد السيد ، لأن طنطا سجن أبدى لهم يودون الفرار منه ، ولئلا يصرفوا فى المولد من النقود ما قد ينفعهم فى المجاورة .

١ — هذا الذى رأيته كان مقدمة لأحد الموالد الثلاثة ، وهو المولد الكبير . لعلك تذكر أن وفاة السيد البدوى وافقت تاريخ مولد النبي صلى الله عليه وسلم فى شهر ربيع الأول سنة ٦٧٥ هـ وذلك يوافق شهرى أغسطس ومسرى . ومع أن الموالد تقام الآن على أنها احتفال دينى ، شجعته الظروف السياسية ، وأنها أسواق رسمية تحدث رواجاً تجارياً ، فإنها مواسم للعبادة ، إذ تقام فيها الصلوات والأذكار ، وتعقد الحضرات والحلقات ، وتقدم فيها النذور وتوزع الصدقات . وقد يكون ذلك كله تقليدا موروثا ، فيذكرون فى نشأة المولد الكبير ،

أن السادة الصوفية جاءوا إلى طنطا عقب وفاة السيد ، ليعزوا فيه خليفته سيدى « عبد المتعال » ، ولما أرادوا الانصراف خرج معهم ليودعهم خارج البلد ، فوعدوه بالرجوع إليه كل عام لزيارته وزيارة شيخه . والمعروف عند أهل « الطريقة» أن « العادة » عندهم تثبت بمرة ، فإذا زارك أحدهم فى وقت ما ، صارت « عادة » يزورك فى مثل هذا الوقت ، وإذا استضفت أحدهم مرة ، فارتقبه المرة الثانية فى ميعاده . ولهذا ترددوا كل عام على خليفة السيد يشتغلون بذكر الله وعبادته ، وشاع ذلك، حتى كثر الوافدون عليه من كل حدب ، وثبت هذا المولد . ويبتدىء المولد عادة « بركبة الحاكم » يوم الجمعة عقب الصلاة ، فيطوف « الحكمدار » فى أرجاء المدينة فى كوكبة من الفرسان، إعلانا للمولد ، ويوزع الجند للمحافظة على النظام ، وينتهى المولد عقب صلاة الجمعة الثانية « بركبة الخليفة » أى ركوبه على حصان من « باب السر » فى موكب حافل من أتباعه ، ومشايخ الطرق ، ثم يطوف فى أنحاء طنطا ، وبذلك ينتهى المولد ؛ ومن هنا جاء المثل الذى يضرب للفراغ من عمل ما « ركب الخليفة وانفض المولد » ولا تمضى ليلة السبت حتى ترى الخيام والسرادقات قد قوّضت وحملت على الجمال وغيرها وأصبحت الملقة قاعا صفصفا.

(٢) أما المولد الصغير ، فيكون عادة فى برمودة ( مارس — ابريل ) ، ويقولون فى نشأته إن الشيخ الشرنبلالى

دعاه الشوق لزيارة السيد قبل ميعاد المولد الكبير فحضر مع اتباعه لذلك ، وصارت « عادة » تكوّن عنها مولد ثان .

( ٣ ) وثالث الموالد هو المولد الرجبي أو الرجبية ، ويكون فى أمشير (فبراير) ويعرف بمولد « لف العمامة » . ويذكرون أن الشيخ الرجبي أو الشيخ رجب من المحلة الكبرى حضر مع أتباعه لتجديد العمامة التى توضع على قبر السيد البدوى فجعلها عادة ، ولهذا سمعت أن أهل المحلة قلما يزورون السيد إلا فى هذا المولد، كما سمعت أن لفافة عمامة السيد البدوى يقوم بتوريد نسيجها « شاشها » أهل المحلة .

ومما ألحظه فى تسمية هذا المولد — مع احترامى للتاريخ إن صحت روايته — أن الناس الآن يدعونه « الرجبية » أى الزيارة التى تكون فى رجب ، وتستعمل هذه التسمية فى الزيارة « الرجبية » التى يقوم بها كثير من المسلمين لزيارة قبر الرسول صلى الله عليه وسلم فى شهر رجب ، قبل موسم الحج ببضعة أشهر

هذا ويرى بعض الفلاسفة أن هذه الموالد الثلاثة ، بأوقاتها المعينة بالشهور القبطية ترجع إلى أصل غير إسلامى ، وأيا كان أصلها ، فانها لاتزال حية ، وإن كانت تقام فى غير التواريخ المذكورة ، ولا يمنع من إقامتها إلا أحداث صحية أو اجتماعية تحول دون اجتماع هذا الخلق الحاشد ، الذى قد يصل تعداده إلى مئات الألوف ، و « لاتجتمع أمة محمد على ضلالة »

# النذور وصندوقها

المرحوم حافظ بك ابراهيم في أضرحة الأولياء :

أحياؤنا لايرزقون بدرهم ... وبألف ألف تُرزق الأموات
من لى بحظ النائمين بحفرة ... قامت على أحجارها الصلوات
يسعى الأنام لها ويجرى حولها ... بحر النذور ، وتُقرأ الآيات
ويقال: هذا القطب باب المصطفى ... ووسيلة تُقضى بها الحاجات[1]

(١) كان الشيخ «سالم ابو جاموس» يقنى كثيراً من الماشية لأنه من كبار المزارعين . وفى سنة مّا ، انتشر الطاعون فى البهائم فنذر للسيد البدوى أكبر ثور عنده إذا نجت ماشيته من هذا الوباء . وقد مر عندهم الطبيب البيطرى فلقح ماشيته بالمصل المضاد ، وبذلك نجت هذه الماشية ، فسر الرجل سروراً عظيما وصمم على الوفاء بالنذر . أخبر زوجه بعزمه على السفر إلى طنطا لتسليم الثور الذى نذره ليدور فى ساقية السيد ، فأبدت رغبتها فى السفر معه لقضاء نذر آخر عليها ، وذلك أن البقرة الحلوب امتنعت عن الدرّ أسبوعا أو نحوه ،

---

(١) ديوان حافظ ج ١ ص ٣١٨ .

فنذرت للسيد إن عاد للبقرة لبنها ، لتصنعن له كيلة « قراقيش » من لبنها وتذهب لزيارته .

سافر الرجل وزوجه إلى طنطا ، فسلم الرجل الثور لخدم السيد ، بعد أن سُجل فى الدفتر المعد لذلك ، ثم دخلا الجامع معا ، وأخذ الرجل يوزع الفرنى على الجالسين والجالسات فى الأضرحة ، ثم بذرا مابقى أمام المزارات فى المسجد ، فهرع اليها الخدم والمجاورون لينالوا مما بذر نصيبا . ولم تنته هذه الحركة ، حتى شوهد بعض الفلاحين يفك وكاء حقيبة ( زكيبة ) مملوءة ذرة مشوية على حافة الصحن ، فأسرع المجاورون لذلك ، وكادوا من كثرتهم وانكبابهم وتزاحمهم يقتلون الرجل ، لولا أن أسرع فترك الذرة والحقيبة ، حتى جاءوا على آخر مطر ( كوز ) منها .

ومن المناظر التى لا أنساها ، تلك البدر الفضية القشيبة . التى نثرها زائر مغربى كبير ، قدم من المغرب الأقصى لزيارة السيد ، فكان يدخل يده فى جيبه ويرمى بالحفنة على حافة صحن الجامع حيث أخذ الدهش المجاورين ، فشغلهم رنينها وبريقها وقتا ماعن التزاحم على التقاطها .

٢ — إذا مررت بقرية من القرى ، وسألت الفلاحين عما عندهم من النذور للسيد ، وجدت هذا قد نذر نصف عجلته الجاموس للسيد ، وذاك قد خصص أربعة قراريط من ابن البقرة ،

وثالثا عليه خروف يعمل به ليلة للسيد . وقد نذرت هذه المرأة أنه عندما تفرخ الدجاجة المرخم، يكون للسيد فى افراخها النصف فتُعنى بالأفراخ وتحافظ على حق السيد ، فتذبحه وتطعمه للفقراء والفقهاء ، أو تبيعه وتحتفظ بثمنه على أن تشترى به بطا أو وزا ، ثم تبيع هذا وتشترى بثمنه نصف خروف ، فإذا كبر اشترت بالنصف خروفا أو نعجة يكون نتاجها خالصا للسيد ، فإما أن تذبح بعضه وتطعمه للمستحقين أو تبيعه وتبعث بثمنه للسيد ، أو تحمله بنفسها لتضعه فى « الصندوق » صندوق النذور بمقام السيد . وهكذا لاتجد بيتا من بيوت الفلاحين إلا وللسيد فيه نصيب ، قل أو كثر . ومن المدهش حقا أن نرى فقراء الناس هم الذين يكثرون النذور ويقيمون ليلة السيد فى كل عام ، ويحملون « العادة » إلى السيد من « البنين » أو « القراقيش » أو القرص ، أو الخبز ، مع أنهم قد يكونون فى أشد الحاجة إلى أقل منها . والأغرب أن تجد هؤلاء الناس أحرص على نصيب السيد وأشد محافظة عليه ، مما يملكون هم .

أما الفول النابت فقد تقام له الحفلات العظيمة بمناسبة موالد بعض الأولياء فى مصر خاصة . ولعلك شهدت الذبائح والمأكولات التى تستهلك فى مولد السيد .

وأما نذر الشموع فليس للسيد وحده ، بل هو عام فى سائر

الأولياء ، ولا يقتصر على المسلمين بل قد يتخطاهم إلى المسيحيين فى كنائسهم ، واليهود فى بيعهم ، وغيرهم .

٣ — اختصم بعض العرب فى قبيلة ما ، فتحاكموا — على عادتهم — إلى مجلس يرأسه شيخ العرب فلان ، وبعد سماع أقوال المتخاصمين قضى بأن يدفع فلان مبلغ ٥٠ جنيها للسيد البدوى .

وعلى هذا يقوم بالمبلغ فلان وفلان ، فيضعونه بأيديهم فى الصندوق . كان ذلك أيام تداول النقد الذهبى ، فحضر هؤلاء العربان بملابسهم البدوية ، وتوجهوا للمشيخة فأرسلت معهم من يحضر وضع النقود فى الصندوق إعلانا لذلك وتأكيدا .

ولا يكاد الجالس فى مقام السيد يقضى لحظة حتى يرى أمام الصندوق من يعد نقودا يريد إيداعها .

٤ — إذا زرت ضريحا من أضرحة الأولياء ، أو مررت على بعضها من الخارج ، وجدت بها غالبا فى نافذة أو كوة أو أمام المقصورة صندوقا خشبيا صغيرا فيه شق ( أو شقان ) مستطيل فى أعلاه أو غطائه ، يزيد طوله على قطر الريال الفضى . هذا الصندوق هو صندوق النذور ، تودع فيه النقود التى نذرها أو تبرع بها أصحابها لهذا الولى أو ذاك . أما صندوق السيد البدوى فهو كبير ، طوله أكثر من ذراعين ، وقد غطيت جوانب فتحاته

بقطع معدنية متينة ، لتقاوم أثر احتكاك النقود المعدنية عند وضعها ، كما حليت جوانبه وزركش كثير من أجزائه بمثل ذلك .

٥ — تعالى معى إلى باب مقام السيد البدوى يوما معينا ! إن المقام مغلق دون الزوّار ، وفى داخله حركة ، والبشر يعلو وجوه الخدم ، وخدام المقصورة جالسون أمام الباب المغلق ! قف أمام الشباك وانظر من خلال الشبكة النحاسية ترَ فى الركن الغربى القبلى جماعة من العلماء المعممين والموظفين المطربشين ، قد افترشوا بساطا خاصا فوق البساط الغليظ المفروش دائما فى المقام .

ماذا ترى أمامهم ؟ ! كومة من النقود الذهبية والفضية وغيرها ، هى كل ما اجتمع فى صندوق السيد منذ ستة أشهر ، أو مابين المولدين . أنصت كى تسمع الصوت الذى فى داخل المقام ! إنه رنين النقود التى يعدها أعضاء لجنة فتح الصندوق . هاهم أولاء قد فرغوا من عدّ ما كان فى الصندوق ووضعه فى أكياس وكتابته فى قائمة . أنظر إلى أصابع هذا الشيخ الذى خرج من المقام وقد تلوثت بصدأ النقود من أثر عدّها !

٦ — دعنى أحدثك حديثا رسميا عن صندوق نذور السيد البدوى لما سترى من أهميته :

ا — كان الصندوق يُفتح مرتين فى السنة ، عقب كل مولد ،

ومنذ مدة صار يُفتح كل شهر ، فى يوم الاثنين أو الأربعاء ، الأول من النصف الثانى من الشهر ، لكى تباع المصوغات التى يحتويها فى قلم الدمغة . وكانت قبل ذلك تباع بالممارسة فى سوق الصاغة العامة . وكانت النقود الرديئة أو الزائفة تباع فى الصاغة بالممارسة ، بنسبة تقرب من ٤٠ ٪ من قيمتها الاسمية ؛ مثلا : ١٧ جنيه بيعت بسعر ٦ جنيه و٣٧ جنيه بيعت بسعر ١٠ جنيه .

ب — من محتويات الصندوق :

١ — نقود : عملة مصرية ـ عملة أجنبية إسلامية : سورية ـ فلسطينية ـ تركية .

٢ — مصوغات

٣ — ورق يانصيب ( أحيانا ) .

٤ — شكاوى .

٥ — ماركات المقاهى .

وقد وجد مرة ٧٠ ج مشبوكة بمشبك { ورقة من ذات ٥٠ ج / ورقتان من فئة العشر ٢٠ ج

وكان متوسط إيراده السنوى نحو ثلاثة آلاف جنيه .

وأكبر « فتحة » فيه كانت عقب المولد الذى أقيم فى أكتوبر سنة ١٩٢٨ والذى حدثت فيه حادثة « الكوبرى » فقد بلغت قيمته

فى شهر واحد ٢٧٠٠ج مصرى ويوجد فى صندوق سيدى عبدالعال ماقيمته ١ ٪ من صندوق السيد

حـ — ويقوم بفتح الصندوق لجنة مكونة من :

( ١ ) مندوب عن شيخ المعهد .

( ٢ ) مأمور الأوقاف أو أحد معاونيه .

( ٣ ) مفتش من وزارة الأوقاف .

( ٤ ) الخليفة .

( ٥ ) إمام المسجد .

( ٦ ) صراف المأمورية ، لتسلم النقدية .

ء — أما محتويات الصندوق فكانت توزع بالنسبة الآتية:

٩ ٪ للخليفة الأول .

٩ ٪ « الثانى .

٩ ٪ الشيخ القويسنى ، منحة من ابراهيم باشا بصفته « السادن » الخادم الكبير للقبة الأحمدية .

٢٠ ٪ للعلماء .

٢٠ ٪ للموظفين .

٣٣ ٪ للطلبة .

١٠٠

وكان شيخ الجامع يأخذ نصيبين ، أو ضعف عالم من الدرجة الأولى

وشيخ المالكية يأخذ ١ ½ نصيب عالم من الدرجة الأولى

وقد توفى الشيخ مرسى طبل فى ٤ من أغسطس سنة ١٩٢٨ وبموته انتهت مشيخة المالكية .

وفى شعبان سنة ١٣٢٣ هـ ( ١٩٠٥م ) كان مقدار ماقبضته من الصندوق ١١٨ قرش وهو ضعف ما كان يقبضه طالب الدرجة الثالثة ، وثلثا نصيب طالب الدرجة الأولى .

( ٧ ) ولأقص عليك قصة طريفة ، رواها زميل قديم أثق بصدق روايته ، قال :

نذر بعض الفلاحين ٧٠ قرشا لسيدى ابراهيم الدسوقى ، فأعطاها لأخيه العالم بالجامع الأحمدى كى يوصلها إلى دسوق. طمع فيها هذا العالم وأنفقها فى شئونه قائلا فى نفسه : نحن أولئك الذين يئول إليهم أمر هذه النذور ، فنحن أولاد السيد ، والسيد وسيدى ابراهيم واحد .

ثم يقول الشيخ: إنه رأى فى منامه جلسة من الأولياء والصالحين أعدت لمحاكمة المذنبين ، ورأى فيها من كان يحكم بإعدامهم ، ومن كان يحكم عليه فيجلد ، وكان هو من المقدمين للمحاكمة منتظراً دوره . أخذ منه الرعب كل مأخذ طول مدة الانتظار لهول ما رأى من الأحكام والتنفيذ! جاء دوره ووقف أمام القضاة ، وبجانبه سيدى ابراهيم الدسوقى ، فسأله الرئيس : ماذنبه ؟ فقيل :

أؤتمن فخان ! ؟ فسئل فى ذلك فدافع عن نفسه بما دار فى خلده عند صرفه النقود . فشفع له السيد — وهو أحد القضاة — بتأخير المحاكمة حتى يعد بأداء ماعليه . سُر الشيخ لهذه النتيجة وأصبح من فوره متجها إلى دسوق ، مسافرا بقطار الساعة الخامسة صباحا ، بدون إفطار أو شرب قهوة على غير عادة . وما إن وصل إلى دسوق حتى يمم الجامع الدسوقى ، وهناك فى المقام ألقى بالمبلغ فى صندوق النذور قائلا : خـــذ ، ويغور اللى يعرفكم ! !

ثم عاد مسرعا ، يطلب باب الجامع إلى المحطة . يقول الراوى : لم يكد الشيخ ينتعل حتى وجد على الباب عربة فيها راكب وجيه ، ومعه حاشيته ، فقال له : تفضل ياسيدنا الشيخ ! وأركبه معه حتى وصلا إلى المحطة ، فأوما الوجيه إلى خادمه فأحضر تذكرتين بالدرجة الأولى . ولما ركبا القطار قدم إليه هذا الوجيه فطورا من خير ما يؤكل ، ومكثا معا طول الطريق والشيخ لايستطيع سؤاله عن شخصيته ، ظنا منه أنه ربما كان من معارفه ، حتى وصلا إلى باب الخروج بمحطة طنطا ، وهناك سلم عليه هذا الرجل ، وربت على كتفه ، عاتبا قائلا : مع السلامة! وليه يغور اللى يعرفنا ؟ !

ثم اختفى هذا الوجيه ، ووجد الشيخ نفسه فى طنطا .

أذكر هذه الحكاية كما رواها الصديق ، بروح هذا الشيخ الذى كان المرح يسوده وأنا بين مصدق مسئول ، ومتأدب أمين فى النقل !

٨ — وقبل أن نختم هذا المقال ، يجدر بنا أن نذكر أن لهذه النذور والهدايا وجهين : أحدهما مقبول ، والآخر قد تشوبه المجوسية . أما الوجه الأول فالنذر لله ولكن يقيد بمكان معلوم ويُصرف لجهة أو طائفه معينة . وهو من هذه الناحية صدقة ولا غبار عليه . أما جعل النذر للسيد لقاء شفاء مريض ، أو الحكم فى قضية معينة على وجه معين ، أو فى نظير زواج ابنته ، أو العثور على ضائع أو مسروق ، فهذا ما لا يقبله الشرع .